بطعم الجمر

رواية

بطعـم الجمـــر

روايـــــــــــة

أســـــعد الأســـــعد

الطبعة الاولى 2014

دار الجندي للنشر والتوزيع القدس

0097022340035-info@aljundi.biz

مونتاج:اسامة سلهب

جميع حقوق الطبع محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار أو طباعة أو ترجمة هذا الكتاب أو جزء منه دون إذن أو موافقة الناشر.

All rights reserved, no part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

أســـعد الأســـعد

بطعـم الجمـر

روايـــــــة

إلـــى ربـــاب

التي سكنت زوايا ذاكرتي

وزيد الذي حمل بعض ملامحي

وما برحت تفاصيله تلاحقني أينما رحلت .

أســـــعد

1

همَّ بمواصلة سيره ، لكنه تراجع حين ظهر قارب صغير من أسفل كوبري قصر النيل ، تبينت له ملامحه في انعكاس أضواء النيون ، الممتدة على طول البنايات المحيطة بنهر النيل ، اعتقد للوهلة الأولى أنَّ حوتاً ضلَّ طريقه ودخل من البحر المتوسط عبر نهر النيل ، حتى وصل إلى القاهرة بحثاً عن الدفء والأمن ، ابتسم وقد أدرك سذاجة الفكرة ، وراح يحدّق في القارب الصغير ، يشق طريقه عبر المراكب السياحية المتناثرة على سطح النيل ، تحمل السائحين ببطء وتؤدّة ، حتى يخيل للرائي أنها تقف هناك ساكنة ، ومياه النيل تنساب مسرعة إلى الشمال مخلّفة وراءها مراكب مختلفة الأشكال والأحجام .

كانت المراكب مضاءة جميعها ، عدا المركب الصغير ، الذي شدّه وجعله يتسمر مكانه على ضفة النيل ، قرب فندق شبرد .

كيف يخاطر هذا المركب الصغير بالإبحار دون أضواء ، وسط زحام المراكب من حوله؟!.. راح يحدّث نفسه وقد شده المركب .

يشبهني هذا الصغير في مخاطرته ، فبعد ساعات سأغادر إلى العريش في طريقي إلى غزة ، ولست أدري إلى أين تأخذني الطريق .

ظلَّ نظره معلقاً في المركب حتى تحوَّل إلى نقطة سوداء على صفحة النيل ، وغاب عن ناظريه ، أحسَّ بيدٍ تلامس طرف يده ، أفاق من شروده ، وقبل أن يسحب يده ، كان صوت صبيّ متسوّل يتوسل إليه أن

يشتري علبة محارم جيب صغيرة ..تحسّس جيبه ، نقد الصبي جنيهاً ، قلبّه بيديه ، كأنه يتأكد من ذلك.. التفت إلى زيد ، شكره.. وانطلق فرحاً بالجنيه.. فيما تابع زيد سيره جنوباً بمحاذاة النهر ، وهو لا يزال مشدوداً إلى القارب الذي غيّبه الأفق ، فلم يعد يرى له أثراً..

حاول الابتعاد بفكره عن ذلك المشهد ، لكن القارب ظل يشدّه إلى صفحة النيل ، لعلّه يعود ثانية ، حدَّق طويلاً ، حتى كاد يراه ينزلق بين مجموعة من القوارب الكبيرة ، انفرجت أساريره ، لكنه ما لبث أن تبيّن له سراب ما يراه.. عاد ثانية إلى صوت سيارات الأجرة تنطلق مسرعة على مقربة منه ، أبطأ بعضها ، أملاً في راكب يصطادونه آخر الليل.. لكنه سرعان ما خاب ظنهم ، حيث انطلقوا باحثين عن راكب آخر.

القاهرة لا تنام.. والليل ستر للهائمين على وجوههم بحثاً عن لذة شاردة ، أو صفاء الذاكرة المتعبة .

هنا في القاهرة ، من الصعب عليك أن تجد نفسك ، تشدّك الزحمة ، فتضيع وسطها ، ولا يترك المارة لك متسعاً من الوقت لتشرد بذهنك ، أو تسرّح ناظريك ، أشياء كثيرة تقطع حبل أفكارك ، وتحول بينك وبين حلم تجهد في الغوص عبر ثناياه ، كأنما تشدّك تفاصيل المدينة بشوارعها وحواريها المتصلة بالنيل ، كأنه السُّرَّة.. تلتقي عندها مصادر الحياة ، هناك تشدك تفاصيل المدينة فلا تدري ، أهي تسرع نحو صباح جديد ، يشبه في شكله الصباحات التي سبقته ، أم أنها تتشكل من جديد ، مع صباح كل يوم ، فتأخذ شكلاً مختلفاً عمّا سبقه ، مدينة تلتف حول نيلها الذي لا يشبهه نهر ، يتمطّى صباح كل يوم ، يتثاءب بحذر ، كأنما يطرد النوم عن حافتيه ، يضيق على حلم ناعم ، يتهادى على وقع خطى السّاعين إلى رزقهم عبر شوارع تحيط به من كل جانب ، وتزدحم بهم

الجسور والكباري الواصلة بين ضفتيه ، حتى يخيل إليك ، أن الملايين من البشر ، لا بد أن يمروّا من هنا في طريقهم إلى أشغالهم ، وأماكن عملهم ، من هنا تبدأ الحياة ، ومن هنا يستمد أهل القاهرة عزيمتهم ، يتباركون بنيلهم ويطلبون السعد لنهارهم ، حدّق في صفحة النيل ، كأنما ينتظر العروس التي كان المصريون القدماء يلقون بأجملهن إلى أعماقه ، علّها تحمي مصر من غضب النيل وفيضانه.. ولعل آخرها كان بالأمس القريب ،إذ إن هدوء مياهه توحي بذلك ، حدّث نفسه ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة اختلطت بذاكرة تبعثرت ، فلم يعد يقدر على جمع شتاتها ، أو تحديد معانيها..

أحس برغبة في الجلوس ، عندما وقع نظره على مقعد خالٍ على الرصيف المحاذي لكورنيش النيل.. تقدم وقد أسرع الخطى ، كأنما يخشى أن يسبقه أحد إليه.. ألقى بجسده المنهك على المقعد ، فيما راح يدور بنظره كأنما يتعرّف على المكان.. قبل أن يقترب منه رجل في أواسط العمر.. يحمل في يده مكنسة طويلة وباليد الأخرى يجرّ عربة صغيرة ، توقف الرجل قبالته محدقاً به.. همَّ بالوقوف ومغادرة مقعده ، وقد أدرك أنَّ الرجل يستأذنه بإخلاء المكان ، كي لا يعلق به شيء من قذارته ، لكنه توقف حين بادره الرجل بالسؤال .

- يبدو لي أنك غريب ؟

ابتسم زيد قبل أن يجيبه .

- وكيف عرفت ؟!

- للغريب طباع تفضحه .

- وما الذي يفضحني ؟

- أهل البلد لا يأتون إلى هذا المكان في مثل هذه الساعة ، وإن فعلوا فليس وحدهم.. ترى ، ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت .. إلى هذا المكان البعيد ؟!

- لم أخطط للمجيء إلى هنا ، أخذتني الطريق .

- بل أخذك شرودك ، وما يدور في ذهنك..

- ربما .

- بلى.. هو ذاك.. أنت لست هنا.. لا أدري أين.. لكنك لست هنا..

- كلنا هكذا.. نمشي ولا ندري أين تأخذنا الطريق.. كأنما نبحث عن طريق غير التي نسلكها..

- الناس تمشي وكلما أوغلت في طريقها.. تبكي الذي مضى.. وتتحسر على زمن كانت تشتهي أن لا يكون.. تلك طبيعة البشر.. لا شيء يعجبهم ، كانت جدتي تقول.. لا شيء يملأ عين الإنسان غير التراب..

- ومن ذا الذي يرضى ؟!..

- الحمد لله.. أنا راضٍ.. صحتي عال العال أكدح طوال النهار.. وأركن إلى أم العيال آخر يومي ، تهش لي حين تراني حاملاً ما تيسر من الفاكهة أو الخضار.. والتي غالباً ما يتصدق عليّ بها أصحاب المحلات آخر النهار ،

ومن رضي بقليله عاش .

حدّق زيد بالرجل ، فيما راح هذا يشرح وجهة نظره .

إنها حكمة الفقراء ، وفلسفتهم ، لو لم يفعلوا ذلك ماتوا كمداً وحسرة ، إنهم يكذبون على أنفسهم ، وغالباً ما يتحاشون الكذب على الآخرين ، إنه عالم البسطاء ، لا شيء يشغلهم سوى أكل عيشهم ، يجهدون في إقناع أنفسهم بالرضا والسعادة ، فإن لم ينجحوا في ذلك انحرفوا ، وإلا فإنهم سعداء حقاً ، وقانعون بما لديهم..

لولا استدراك الرجل ، ما فكر بالرحيل ومغادرة مقعده .. لكنه قفز حين استأذنه الرجل بالانصراف ، وقد أدرك أن الوقت قد حان للذهاب إلى موعده مع الحافلة التي ستقله مع آخرين إلى العريش..

ودّع الرجل وانطلق عائداً إلى فندق شبرد ، كانت عقارب الساعة في يده ، تقترب من الخامسة فجراً ، بدا عليه الارتباك ، وقد أدرك أنَّ عليه الإسراع حتى يلحق بالحافلة ، وإلا ضاعت منه فرصة العمر .

نظر إلى ساعته ثانية ، أسرع الخطو حين أدرك أن الوقت يكاد ينقضي ، بدا عليه القلق ، فيما راحت عيناه تحدق في البعيد ، لعله يرى الحافلة فيطمئن قلبه.. مرت دقائق طويلة ، قبل أن تقع عيناه على جمهرة من الناس ، حتى أنَّه بالكاد رأى طرف الحافلة العلوي .

هدأ قليلاً ، وراح يغذ الخطى نحوها.. لحظات اقترب من المكان.. اطمأن حين أدرك أنَّ الآخرين لم يكونوا أسرع منه، ولم يكونوا أكثر التزاماً بالموعد ، كان يكره كل من يتأخر عن موعده.. لكنه في هذه المرة ، شكر لهم عدم التزامهم ، وأثنى على تأخرهم.. اقترب من الحافلة.. وراح يبحث في

وجوه الركاب علّه يتعّرف إلى بعضهم.. وجوه لم يرها من قبل.. كاد يمضي في سبيله وقد ظن بأنه أخطأ الحافلة.. لكنه سمع صوتاً يناديه.. التفت إلى مصدر الصوت.. وما أن وقعت عيناه على صاحبه ، حتى صاح به..

- رمزي !! متى وصلت ؟!
- وصلت الليلة من تونس ، وأنت ؟!
- وأنا أيضاً.. وصلت الليلة من بغداد ، عبر الأردن.. في رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر..
- لا بأس يا عزيزي.. المهم أنك وصلت.. رغم أن الأمر لا يبشر بالخير..
- ما زال أمامنا الكثير من المعاناة حتى نصل إلى غزة..
- يبدو ذلك واضحاً..

ابتعدا عن الحافلة ، وراحا يتجاذبان أطراف الحديث ، ويتبادلان الأخبار.. فيما راح أحدهم ينادي عبر مكبر الصوت ، أسماء الركاب.. الذين بدأوا يتدافعون للصعود إلى الحافلة .. كان الرجل يتوقف قليلاً بعد كل نداء ، وإذا ما تأكد من صعود الراكب إلى الحافلة.. واصل نداءه ليبدأ التدافع من جديد ، إلى أن يصعد أحدهم إلى الحافلة.. فيما تشرئب أعناق الجميع ، محدّقين بالمنادي ، وتتعالى أصواتهم تطالب بالتزام الصمت حتى يتسنى لهم سماع الأسماء ، علّه ينادي أحدهم .. بدأ صبر زيد ينفذ ، وقد امتلأت الحافلة بالركاب ، إلا القليل ، استدار نحو رمزي ، وقد بدا عليه التعب.. وقبل أن يجمع شتات كلماته.. استوقفه صوت ينادي اسمه.. مرّت لحظات قبل أن يستوعب أنه اسمه.. وأنهم

ينادونه.. انطلق عبر الجمع المحتشد عند باب الحافلة.. شاقاً طريقه بصعوبة.. صعد إلى الحافلة.. وانطلق نحو المقاعد الخلفية القليلة ، ألقى بجسده على أول مقعد خالٍ ، اقترب من النافذة وراح يبحث عن رمزي وسط الزحام.. اطمأن حين رآه يُسرع نحو باب الحافلة.. جلس بانتظار وصوله.. وقد بدأ يستعيد هدوءه ، أسند رأسه بباطن يده.. مطلقاً العنان لعينيه.. تحدّقان في البعيد ، وتغرقان في بحر من الصور المتشابكة ، اللامتناهية.. حاول أن يضبط حدودها ، لكنها كانت تنزلق عبر حدقاته المنهكة ، يغمض عينيه محاولاً الابتعاد عن ارتباك نظره..

قطع تحرك الحافلة حبل أفكاره.. وأعاده إلى حيث يجلس في المقعد الأخير.. بدأ السائق يتقدم بحافلته ببطء.. قبل أن ينساب في مساره عبر الشارع المزدحم بالمارة والسيارات.. فيما غرق الجميع في الدهشة وانتظار اللحظة القادمة..

كانت الحافلة تنطلق عبر شوارع القاهرة.. فيما عاد زيد إلى حاله.. ينظر عبر النافذة.. يحدق في البعيد ولا يرى شيئاً من تفاصيل ما يقع نظره عليه ، شوارع لا تزال ضيقة ، تزدحم أرصفتها بالمارة ، فتضيق بهم ، ينطلق بعضهم عبر الشوارع ، في فوضى تزيد من زحمة السير ، فجأة توقفت الحافلة ، اشرأبت الأعناق تستطلع الأمر ، لحظات ، عاد إلى شروده ، وقد اطمأن إلى أن الأمر لا يعدو ازدحام الشوارع بالسيارات والمارة ، عاد زيد إلى حاله ، يحدق في الشارع المزدحم بالناس.. ترتسم على وجوههم علامات لم يلتفت إليها من قبل ، ولم يلحظها ، كانت وجوههم متجهمة ، عيونهم شاخصة ، ونظراتهم شاردة ، يهرولون كأنما يهربون من شيء ما.. الناس في الزحمة يشبهون موج البحر.. موجة تسرع ، كأنما تهرب من موجة أخرى تهرول مسرعة خلفها ، ثم لا

تلبث أن تتوحد معها ، تصل إلى الشاطئ وقد أعياها السفر ، تضعف فتستلقي على الشاطئ ، أو تضرب نفسها بصخور تتشبث ببعضها ، تنكسر ، ترتد وتتناثر في المكان ، ليبتلعها رمل الشاطئ ، تذوب في مياه البحر من جديد ، فيما تتناثر الصخور ، وقد انغرست أطرافها في الرمل ، تحاول الفكاك من قبضته ، لكنه يطبق عليها ، ويمنعها من الانسياب نحو البحر.. الناس مثل موج البحر.. بعضهم كالصخر ، يدور حول ذاته ، ويراوح في ذات المكان ، يدغدغه الرمل حين يعجز عن ابتلاعه وتنزلق حبات الرمل ، فتتشكل على طول الشاطئ نتوء تبدو من بعيد كأنها مخابئ القنفذ في مطلع الربيع..

أفاق من شروده على اتساع الشارع وانسياب الحافلة ، وقد اختفى المارة أو كادوا ، حتى أنَّ أشكالهم تغيرت ، فتبدلت ملابسهم ، فيما اختفت البنايات العالية أو تقلصت طبقاتها ، وتناثرت في مساحات خضراء راحت تتسع شيئاً فشيئاً ، وقد بدأت تنتصب على حافة الطريق إشارات المرور ، وإعلانات تجارية ، استوقفته يافطة تشير إلى اتجاه الطريق نحو الإسماعيلية ، فيما بدت من بعيد ، جموع الفلاحين منكبّين على الأرض يعزقونها ، وقد لفوّا جلاليبهم على خاصراتهم ، تمهل السائق ، حين فاجأه حمار هائم وسط الطريق السريع ، يتبعه ثور هائج ، فيما وقف فلاح يلّوح لهما بعصا من بعيد ، توقفت الحافلة تماماً ، خلف طابور من السيارات ، وكأنما المشهد راق للثور والحمار ، فتسمّرا وسط الطريق ، ما دفع أحدهم إلى مخاطبة الفلاح لأخذهما بعيداً عن الطريق ، لحظات ، تعطلت حركة السير ، وعلا صياح سائقي السيارات ، كأنما أدركا عاقبة فعلتهما ، تقدما ببطء شديد نحو طرف الشارع ، فيما انطلقت السيارات وسط هرج ومرج الركاب ، وتدافع عدد من الفلاحين من الحقول القريبة لتقديم العون ، أو حباً في الاستطلاع والتفرج على

ركاب الحافلات المتوقفة ، يعرف زيد هذه النظرات ويقرأها جيداً ، إنها مزيج من الحسرة ، والإحساس بالغبن ، بل إنَّ بعضها يرقى إلى الحقد والكراهية ، إنه السفر ، الذي يحلم به كل واحد منهم ، إلى أين ؟! لا يهم ، المهم أن يغادروا هذا المكان ، يحبون وطنهم ، لكنها لقمة العيش ، التي تستعصي عليهم ، وبالكاد يحصلون عليها ، لم أر أحداً يحب أرضه مثل هؤلاء ، يحبّون السفر والترحال ، لكنهم يتعلقون بأرضهم ، فيعودون إليها.. وقد غيرّوا جلاليبهم ، وتبدّلت مظاهرهم .

- لكنهم أول من يهب للدفاع عن الوطن ، إذا ما تعرض للخطر.. انتصب أمامه طيف صديقه سالم ، الذي انقطعت أخباره منذ سنوات ، منذ أبعدوه عن فلسطين إلى لبنان ، قبل اثنتي عشرة سنة ، خمسة عشر عاماً في السجن ، لم تبدّله العذابات التي عاشها ، ولم تفتّ من عزيمته..

- أه يا سالم ، كم اشتقت إليك ، أوغلت في السفر والرحيل ، وكدت أضيع في مدن الشتات والغربة ، لكنك لم تغب عن بالي ، وطيفك ما فارقني.. ربما كان زادي في سفري القصري الطويل ، سالم ، يا صديقي العزيز ، ها أنا عائد إليك ولا بد أن ألتقيك ، فانتظرني.. أنت معلمي ، الذي علمني محبة الوطن ، أنت من وقف إلى جانبي ، وجعلني أنهض من جديد ، تعلمت منك الكثير ، وعلى يديك أحببت الحياة وأقبلت عليها بشغف كبير وتعلّقت بأسبابها ، سألت عنك ، أقسم أني حاولت الاتصال بك ، لكني لم أعثر على أحد يدلني على عنوانك ، أو يطمئنني عليك ، أنا قادم يا سالم ، فلا تغضب عليَّ ، أعرف أنك ما زلت هناك ، لم تبرح مكانك ، ما زال صوتك يرنّ في أذنيّ.. نحن الفقراء ، أشد تعلّقاً بوطننا ، كنت تغضب مني حين أقول لك.. وطنك حيث تجد سعادتك.. يومها سألتني وما هي سعادتك؟! قلت لك .. راحة البال يا سالم.. راحة البال..

- أنت ما زلت تكذب ، حتى على نفسك ، عند احتلال القدس ورام الله وأريحا.. ما الذي دفعك إلى العودة ، والتسلل عبر نهر الأردن إلى العوجا ثم أريحا ورام الله..؟!.. كنت في بيروت ألم تتخلَّ عن زينب ، حبك الأول ، من أجل أريحا ورام الله والقدس..؟!

- أنا لم أكذب ، تسللت إلى أريحا ، سعياً وراء سعادتي ، ولم أتخلَّ عن زينب ، فقد رجوتها وتوسلت إليها أن ترافقني إلى أريحا ، لكنها رفضت .

- ربما ، لكن أريحا لم تكن تعني لزينب شيئاً ، فما الذي سيدفعها إلى مرافقتك ؟! كان عليها أن تحرق كل شيء خلفها ، وتصحبك إلى المجهول ، وتاريخ لا علاقة لها به .

- إنه الماضي الذي يعشش في أعماقي ، وتاريخي الذي لا أملك فكاكاً منه .

- أنت أناني..

- ربما..!! ولكني لا أكذب .

ألقى برأسه على كفّه ، وأغمض عينيه ، عساه يتواصل مع طيفه ، كأنما راقه استحضار سالم ، فيما انطلقت الحافلة نحو الإسماعيلية ، لتعبر صحراء سيناء عبر قناة السويس .

كانت تلك المرة الأولى التي يشاهد فيها التغيرات التي أحدثتها سياسة الانفتاح ، حين حدثه بعض الأصدقاء عن الصحراء الممتدة بين القاهرة ومدن قناة السويس والتحولات السريعة التي حدثت في المنطقة بعد اتفاق كامب ديفيد ، المساحة الخضراء تمتد عبر الأفق ، مزارع نموذجية ، تتوسطها بيوت جميلة للأغنياء وطبقة من الناس ذوي جنسيات مختلفة

، لم يصدّق يومها ما سمعه من أصدقائه..

أذهله المشهد ، فأطلق العنان لعينيه تُقلّب تفاصيل المدى الأخضر ، الممتد حتى الأفق ، في انسجام لم يشهده من قبل ، صرّ عينيه ، حين وقع نظره على مجموعة من الفلاحين ، بجلاليبهم المعهودة ، وسراويلهم الطويلة ، بعضهم يحمل في يده قفطاناً وآخرون معازق ومجارف في طريقهم إلى مزارع ليست لهم ، وربما كانت لهم ذات يوم ، تذكر صديقه سالم مرة أخرى..

سالم الذي أنقذه يوم تسلل من الكرامة إلى العوجا ، وكاد يقع في قبضة الدورية الإسرائيلية ، لولا تحذيره ودعوته له بالدخول والاختباء في مزرعة الموز التي كانت لوالده ذات يوم ، وأهداها لمأمور الطابو في القدس ، حيث استأجرها منه على سبيل المزارعة ، كان يعتقد أنه بذلك يتقرّب منه...فلاح بسيط ، ورث بعض المزارع والأراضي عن والده ، مثل كثير من الفلاحين ، لم يقدم له شيئاً ، لكنه كان قانعاً باستقباله له في بيته الكبير في القدس ، وقد أوهمه بصداقته له فكان يحمل له الفواكه والخضار ، واللبن والجبن والعسل ويفاخر بذلك.. ويعود في كل مرة ليقضي الساعات يتحدث في مجالسه عن زيارته لصديقه ابن العائلة المقدسية الكبيرة ، حين سألته ذات مساء ..

- وماذا قدَّم لك صديقك المقدسي ؟

أجابني غاضباً..

- استقبلني في بيته..

وأضاف..

- وجلس معي أكثر من ساعة..

كان أبو عصمت المقدسي يدرك ما يكفي لإرضاء أبي سالم ، يملؤه إحساس بالسعادة ، حين يصطحبه إلى مقهى أبو عصب عند درجات باب خان الزيت ، ويقدمه إلى أصدقائه .

- هذا صديقي أبو سالم ، صاحب المزارع والبيارات في العوجا..

يطير أبو سالم فرحاً ، وتدغدغه كلمات الرجل الخبيث ، ينتقي كلماته جيداً ، ويحسن معاملته ، طالما أنَّ الأمر لا يمس كبرياءه ، ولا ينتقص من مكانته ولا يحط من عليائه ، فليأخذ الرجل من معسول الكلام ما يشتهي ، وإن كان ذلك ما يرضيه ، فتلك أقصر الطرق وأقلّها كلفة إلى قلب الفلاح الطيب أبو سالم..

وحتى يكتمل المشهد ، رزق أبو عصمت بغلام فماذا سيقدم أبو سالم هدية لصديقه المقدسي ، إنها مزرعة في طرف العوجا..

- ليس هناك من هو أحق منك بها.. إنها هديتي لك.. أرجو أن تقبلها..

أسرع أبو عصمت ، مأمور الأراضي إلى مكتبه ، وسجّل الأرض على اسمه..

- وها أنا كما ترى أزرع الأرض وأفلحها ، الأرض التي كانت ستؤول لي ، لو أن والدي رحمه الله...لم يكن بتلك السذاجة ، ولو لم يتعلق بوهم علاقته بذلك المقدسي ، ابن الذوات ، صاحب الحسب والنسب .

كان سالم يقف أمامه ، وقد استحضره ، بشحمه ولحمه ، رآه يخفي عينيه ، ويعتصرهما ألماً وحسرة على الأرض التي ضاعت ، وحزناً على والده ، أخذ نفساً عميقاً ، تنهّد وهو يقلب يديه..ترحّم على والده ، مسح عينيه بباطن يديه ، نظر إلى زيد ، واختفى..

أفاق زيد من شروده ، فيما كانت الحافلة تشق طريقها نحو الإسماعيلية.. جال ببصره يتفقد الركاب ، الذين غط معظمهم في النوم ، فيما راح البعض الآخر يطلق العنان لشروده عبر نوافذ الحافلة ، لكن الصمت المطبق ، كان قاسمهم المشترك ، خيّل إليه أن لا أحد نائم ، حتى أولئك الذين أغمضوا عيونهم ، فالقلق والارتباك كان يرتسم على وجوههم ، بل إن عضلات وجوههم ، كانت تبدي بعض إشارات تنم على استغراقهم في التفكير وانشغال الفكر .

بطء الحافلة ، كان مؤشراً على دخول المدينة ، أطلق العنان لعينيه تتفقدان ما تيسر له رؤيته ، كأنما يبحث عن شيء ما.. فقد اختفت شواهد الدمار الذي لحق بالمدينة سنوات حرب الاستنزاف يوم كان الإسرائيليون يحتلون الضفة الأخرى من القناة ، يومها ، تحولت المدينة إلى جبهة قتال ، ما أدى إلى رحيل أهلها ، ولم يبق فيها غير الفدائيين والمقاتلين.. فتحولت بقايا بيوتها إلى ثكنات عسكرية ، طوال ست سنوات ، يوم كان الإسرائيليون على بعد أمتار من المدينة ، يمطرونها ليل نهار بمختلف الصواريخ وأسباب الدمار ، فلم يبق في المدينة حجر على آخر.. يومها ، حدثني بعض أهلها ، بالعديد من القصص التي عاشتها مدن القناة ، ما يشبه أيام حرب السويس ، بل وأشد قساوة ،.. أطلق العنان لخياله ، يشكل صورة لما كان يجري ، صورة مرّت عليها عشرون سنة ، تكفي لإعادة تشكيلها من جديد ، ومحو ما خلّفته ، رغم الجرح الذي

لم يندمل ، وما زال ينزف من أطرافه التي لا تزال مفتوحة على ذاكرة عارية ، لم تجد من يحمي عُريَها ، رغم تشبثنا بخيوط ذاكرة متعبة ، وكأن القصف طالها أيضاً فتهتّكت ، وأصابها من الخراب ما يشبه شِباك الصيادين ، على شاطئ مهجور ، هاجمه القرش ، فهجره الصيادون ، وهربت الأسماك إلى شاطئ آخر ، أكثر أمناً وأماناً .

توقفت الحافلة ، ترجّل سائقها ، وقبل أن يغادرها ، التفت إلى الركاب ، وطلب منهم عدم مغادرة الحافلة ، إذ عليه إجراء بعض المعاملات قبل السماح للحافلة بعبور القناة إلى سيناء ، فيما كان أحد الركاب يشير بيده إلى الضفة الأخرى .

- من هنا عبروا ، وذاك خط بارليف..

راح يروي لصاحبه قصة العبور ، وتحرير الضفة الأخرى للقناة.. لا يزال يذكر ما حدث ، كانت الساعة تقترب من الثانية بعد الظهر ، حين سمع الخبر ، اعتقد للوهلة الأولى ، أنَّ الأمر ليس إلا تمثيلية أو مسلسلاً إذاعياً ، وظل كذلك حتى سمع المارشات العسكرية ، والأغاني الوطنية ، عاد إلى البيت غير مصدّق ما يسمع ، فيما ساد الهرج والمرج شوارع رام الله ، وراح بعض جنود الاحتلال يطلقون النار ويطلبون من الناس مغادرة الشوارع ، معلنين عبر مكبرات الصوت حظر التجوال ، لحظات ، بدت الشوارع خالية ، والمحلات التجارية مغلقة ، فيما راحت دوريات حرس الحدود تجوب الشوارع ، مطلقة بعض زخات من الرصاص ، بين الحين والآخر ، في تلك الليلة ، لم يسلم أحد من الاعتقال ، أخذوا أعداداً كبيرة من الشبان ، اقتادوهم إلى المقاطعة ، لم يتسع السجن فأقاموا معسكراً في الساحة ، وقد اكتظت الخيام ولم تعد تكفي ، كان زيد واحداً من نزلاء تلك الخيام ، يحاول جاهداً التشبث بالبقعة التي وصل إليها ،

وسط تدافع السجناء وتراجعهم أمام عصي الجنود وتهديدهم باستعمال السلاح إن لم يتراجعوا ، فجأة انطلقت رصاصة ، تدافع الشباب ، سقط بعضهم ، فيما تعثر آخرون بمن سقطوا ، نهضوا ، وتدافعوا نحو الخيمة ، لكن أحدهم ظل يتخبط بدمه ، حاول البعض الوصول إليه لكن الجنود على منصات الحراسة المحيطة بالخيام ، حالوا برصاصهم دون ذلك..

توقفت الحافلة ، صعد أحد الجنود طالباً من الركاب تحضير أوراقهم وجوازات سفرهم.. أفاق من شروده وقد اعتقد للوهلة الأولى أنه ما زال في سجن رام الله ، لكنه سرعان ما أدرك أنه في سيناء ، وأن الحاجز للجيش المصري قبل الوصول إلى العريش .

2

بدا المشهد مختلفاً ، فالأرض المستصلحة على جانبي الطريق ، تبعث على الإحساس بالدفء ، وكأن المصريين أعادوا اكتشاف سيناء ، لعلهم أدركوا أن لديهم أرضاً صحراء ، يمكن أن يعاد تشكيلها ، ورسم معالم جديدة لها ، وها هم يعودون إليها ، نعم يعودون إليها ، فالأرض لا تعود ، وإنما البشر هم الذين يعودون.. الأرض باقية لا ترحل.. الناس هم الذين يرحلون.. ازدحم الشاطئ بالشاليهات ، تحيط بها غابات النخيل ، وتخرج من الحدائق باتجاه البحر ، تنغرس هناك ، فتلامس نهايات الموج ، وزبد البحر المتعب ، المتهالك للوصول إلى أقدام النخيل المنتصبة على طول الشاطئ.. مدينة العريش ، قرية كبيرة.. يزدحم شاطئها والشارع المحاذي له بالمصطافين ، القادمين من مدن الصعيد ، والأرياف البعيدة عن البحر ، الذين اكتشفوا المدينة ، وسحر شواطئها ، ما دفع الكثيرين إلى الاستثمار في مجال السياحة والاصطياف..

كانت الحافلة تشق طريقها دونما عائق.. الشمس تتوسط السماء ، فتسقط أشعتها عمودياً ، لتدفع المارة إلى البحث عن ظل يقيهم حرارتها ، لكن معظمهم آثر البقاء حيث يقيم .

امتدت رفح وتمددت لتجتاز الحدود بين فلسطين ومصر فتشكلت مدينتان متلاصقتان،

رفح فلسطينية ، ورفح مصرية ، وإن كان معظم سكان المدينتين من الفلسطينيين، كان ذلك بعد انسحاب الإسرائيليين من سيناء ، وترسيم الحدود بينهما ، هنا ، ترى العجب ، الأسلاك الحدودية قطعّت شمل العائلات ، وقسمّت البيوت ، المطبخ في مصر، والحمام في فلسطين ، الأخ هنا ، والأخت هناك ، ولا أحد يستطيع أن يرى الآخر ، أو يزوره ، اقتربت الحافلة من تل السلطان ، حي فلسطيني ، في رفح المصرية ، المشهد يحمل تداعيات لا تراها في أي بلد آخر ،.. ولا حتى في الأحلام.. هنا.. عالم يختلف عن أية بقعة في العالم ، قد يكون هناك أسوأ منها ، لكن الإسرائيليين أبدعوا في خلق أشكال وفنون لإذلال الناس ، وتدمير نسيجهم الإنساني .

أما الفلسطينيون ، فقد أبدعوا في خلق طرق للاتصال ، لا تخطر على بال أحد.. حفروا انفاقاً على طول الشريط الحدودي ، أنفاق يتسع بعضها لتهريب سيارات صغيرة.. ثم تقلصت لتهريب البضائع والأجهزة الكهربائية وأحياناً الممنوعات ، إنها الحاجة ، أم الاختراع..

اقتربت الحافلة من جمهرة من النَّاس ، دقق النظر في وجوههم .

- إنهم من العائدين إلى غزة ، إنها الحدود إذن .

حدّث نفسه ، فيما توجهت أنظار جمهور العائدين نحو الحافلة ، بعضهم رفع يده محيياً ، والبعض الآخر كان يتمتم كلمات لم يسمعها ، لكن معظمهم كان يبتسم ابتسامة لم يدرك معانيها.. أهي ابتسامة الفرح بوصول فوج جديد من العائدين ؟! أم هي ابتسامة تحمل معانٍ أخرى ، قد يدركها لاحقاً؟!

توقفت الحافلة ليس بعيداً من المكان ذاته ، لكنه بعيد عن المعبر.. أطل برأسه يستطلع أمر الهرج الذي ساد ركاب الحافلة ، فيما ترجّل بعض الركاب محاولاً النزول ، لكن السائق حال بينهم وبين ذلك ، حيث أبقى

الباب مقفلاً ، وقد علا صوت مساعده ، يطلب من الجميع ، البقاء في أماكنهم ، وعدم مغادرة الحافلة.. كان مئات الرجال والنساء والأطفال هائمين على وجوههم.. وقد بدا التعب والإرهاق عليهم.. مشهد أعاده إلى أيام توزيع المؤن في مخيم عقبة جبر قرب أريحا.. أواخر كل شهر.. حيث كان الطحين يختلط بالمرجرين ، وغبار العدس والأرز، فيما تتعالى أصوات العجائز ، تنادي على مشترٍ لعلب اللحمة والسردين ، وحمّال يبحث عن رزقه ، ويفاوض عجوزاً لحمل ما تيسر لها من صدقات هيئة الإغاثة الدولية ، وآخر يحاور كهلاً على بطاقة الإعاشة التي لم يستطع صرفها من أمين المستودع ، ذات المشهد.. يتكرر هنا بأشكال مختلفة ، الكل يزحف نحو المعبر.. علّه يستطيع الدخول عبر البوابة المغلقة ، أمهات يحملن أطفالهن ، هذه تحاول طرد الذباب عن وجه طفلها ، وتلك تحاول إلهاءه بشيء يشبه لعبة الأطفال ، وأخرى ضاقت ذرعاً بصغيرها الذي تهدهده ، عله يكف عن البكاء ، تتمتم بكلمات وجمل غير مترابطة ، كأنها تريد أن تشكو طفلها ، لأنها تعتقد بأن بكاءه غير مبرر ، حدّق زيد بعيني الطفل وقد علا صراخه ، حدّق في عينيه مرة أخرى ، ابتسم حين لاحظ أن الطفل يبكي ويصرخ ، من غير دموع ، اعتقد للوهلة الأولى أن أمه تفهمه ، وتدرك أن لا مبرر لبكائه.. لكن الطفل عاد يصرخ بأعلى صوته.. وقد ابتعد بنظره عن زيد وعن أمه.. وراح يقلب نظره ، تارة في الناس من حوله ، وتارة أخرى في الجنود المدججين بالسلاح أمامه يشهرونه في وجوه المتدافعين أمام البوابة.. ويتضاحكون بشكل هستيري مريض ، كأنما يتلذذون بعذابات الناس ، وذلهّم.. حدّق في جنود الاحتلال.. لم يتغيروا منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً.. يوم رآهم أول مرة في ساحة أريحا.. وربما كانوا هم أنفسهم الذين رآهم هناك.. مثل رعاة البقر.. أو هكذا يتعاملون معنا.. قال محدّثاً نفسه.. قبل أن يستقر نظره على الطفل ذاته.. لكنه وقد تعب من البكاء.. أو ربما التظاهر بالبكاء.. ألقى برأسه على صدر أمّه.. كأنما أراد أن يبتعد عن

مشهد لم يعد يطيقه ، فيما أمّه لا تزال تهدهده ، وقد بدا عليها الارتياح ، لكن عينيها مجهدتان ، غائرتان تستجديان إغفاءة ، ولو للحظات ، دارت حول نفسها تبحث عن مكان يحقق غايتها ، نقّلت قدميها متجهة نحو عمود كهرباء ، لم تجد أفضل منه ، حثت الخطى نحوه ، كأنها خشيت أن يسبقها أحد إليه ، قرفصت ، متهالكة أسندت ظهرها إلى عمود الكهرباء ، أخذت طفلها بين ذراعيها ، فيما تململ الطفل ، وهو يشدّ أمه ، ويلقي برأسه في حضنها ، وراح الاثنان في نوم عميق..

استدار زيد ، ومضى في سبيله ، يبحث عن مكان يستظل به ، وقد أحس بضيق شديد ، ورغبة في استراحة ، أو ربما إغفاءةٍ قصيرة ، تعيد إليه ما استنفذه مشهد الطفل وأمّه ، وتزاحم العائدين عند بوابة العبور دونما طائل..

كانت الشمس تبتعد عن كبد السماء ، فيمتد ظل جدران البيوت المحيطة بالمكان ، ما يسمح بسعي الباحثين عن مكان يستظلون به ، باستراحة قصيرة هرباً من الشمس وحرارتها ، والرطوبة الخانقة ،تقدم نحو المسجد الصغير الذي يتوسط الساحة ، وقد لفت نظره تهافت الناس على جدران المسجد التي أمتد ظلّها ، حيث اختفت الشمس خلف شجرة الجميز الكبيرة المنتصبة وسط ساحة المسجد ، حتى بدت أكثر ظلاً من شجرة الكينا وبعض شجيرات الزيتون المصفرّة أوراقها من العطش ، رغم تعمد المصليّن الوضوء عندها ، ما سمح لها بالانتعاش ، ومواصلة الحياة والعيش بما تيسر من اخضرار ونماء ، بفضل ما يتسرب إليها من ماء المتوضين حولها .

دخل زيد إلى ساحة المسجد يجرّ قدميه ، وقد أحسّ بتعب شديد ، وحاجة ماسة إلى قسط من الراحة بعد ساعات طويلة ، دار فيها على رجليه.

كانت الشمس تهرب مسرعة نحو الغرب ، فيما ذيولها تتسلل عبر أوراق

شجرة الجميّز التي تتوسط ساحة المسجد ، جال ببصره أرجاء الساحة المكتظة بالناس تقدم نحو الجدار ، وقد وقع نظره على مكان بالكاد يتسع له ، ألقى بجسده المنهك على الأرض ، أحسَّ برغبة في إغفاءةٍ لم يقوَ على مقاومتها ، فيما أسند رأسه إلى الجدار ، وأغمض عينيه المثقلتين بالنعاس ، لكن المشهد لا يفارقه ، سحب جسده ، فيما راح يدفع حقيبته الصغيرة يسند بها رأسه المتعب ، ضمَّ يديه إلى صدره واستلقى على جانبه محاولاً استعادة صفاء ذاكرته المبعثرة ، كأنها بقايا أوراق تختلط حروفها ، فلا يعود يفهم شيئاً منها ، أطبق عينيه وقد غلبه النعاس ، لا تزال أسراب النحل تطنُّ في أذنيه ، وتضغط على دماغه.. لكن ابنه سالم الصغير ، لفَّ ذراعه على رقبتهِ ، ضمه إلى صدره ، وهو يسأله عن أمّه رباب .

سالم الصغير لم يعد صغيراً يا زيد ، ابنك أصبح شاباً ، يدرس في جامعة بيرزيت ، أعرف أنك لم تره منذ خمس سنوات ، والصورة التي تحملها له في محفظتك ، تعود للأيام الأولى من الانتفاضة ، ابنك يا زيد أصبح رجلاً ، وهو يشبهك كثيراً ، حتى في طباعهِ ، كبر سالم قبل أوانه ، وقد كان رجل البيت أثناء غيابك يا زيد... أما شقيقتك ميسون فلم تنقطع زياراتها لنا بعد أن تزوجت ورحلت مع زوجها إلى الخليل حيث تقيم معه هناك .

- آه يا زيد.. خمس سنوات لم أرك فيها ، منعوني وسالم من مغادرة الضفة الغربية ، أتذكر ، كان الهاتف وسيلتنا الوحيدة للتواصل ، ولم يكن يشفي غليلنا ، إذ لم نكن نتحدث طويلاً.. وليس لدينا ما يغطي تكاليف المكالمات الدولية.. فالدكّان بالكاد يكفي لعائلة أخيك زياد ، رغم أنه لم يبخل علينا بشيء وكان سخياً معنا..

أفاق على أصوات وجلبة.. نهض مذعوراً.. لكنه ما لبث أن استعاد هدوءه بعد أن سمع المؤذن ينادي لصلاة الفجر ، فيما تسابق العديد من الناس إلى المتوضأ ، استعداداً للصلاة..

همَّ بالنهوض ، لكن بعض جسده لم يساعده على ذلك ، فتمطى قليلاً ، محاولاً لمَّ جسده المتصدّع ، وعظامه التي أحس بها وقد انتقلت من مكانها.. تحامل على نفسه ، ووقف محاولاً إعادتها إلى حيث كانت ، حاول التقدم نحو المتوضأ ، لكنه تراجع حين وقع نظره على ازدحام المكان بالراغبين في التوضأ أو غسل وجوههم ، بحث عن طريق يسلكها للابتعاد عن الازدحام ، تسلل بصعوبة ، وقد عرف غايته ، حمد الله وهو يتحسس حقيبته الصغيرة ويتأكد من سلامتها ، رغم أنه يدرك أن لا شيء فيها يستحق الخوف عليها من السرقة ، ولا حتى من العبث في محتوياتها ، إذ انها لم تكن تحوي غير ما يكفيه من ملابس خفيفة تكفيه لأسبوع ليس أكثر.. فهو على عادته ، يكره حقائب السفر ، كان يقول لزوجته رباب..

- أنا لست ذاهباً إلى صحراء.. سأشتري ما أحتاج إليه حيثما حللت .

تنفس الصعداء حين أدرك أنَّه أصبح خارج ساحة المسجد ، وقف يتلمّس طريقه ، تقدم من صبيّ يجر عربة صغيرة ، يحمل فيها بعض زجاجات الماء ، وأنواع مختلفة من المشروبات الخفيفة ، مدّ يده إلى زجاجة ماء ، نقد الصبي ما تيسر ، فتح الزجاجة ، شرب ما استطاع منها ، وغسل وجهه بما تبقى.. كاد يواصل سيره.. لكنه وقد أحسَّ برغبة شديدة في فنجان قهوة ، وإذا كان ذلك صعباً ، فلا بأس بالشاي..

عاد إلى الصبي وسأله إن كان ذلك ممكناً.. هش للصبي وهو يشير بيده إلى مكان قريب يمكنه أن يجد فيه ما يسعى إليه.. شكره وهو يسرع نحو المكان عله يجد ضالته..

العريشة ، المقهى ، على بعد دقائق من عربة الصبي ، اقترب زيد من جمهرة من الناس ، بعضهم كان محظوظاً فوجد كرسياً من القش ، مثل

تلك التي لا يزال يذكرها ، تمتد على الرصيف المحاذي لمستنبت أريحا ، على الطريق إلى مدرسة هشام بن عبد الملك ، ومدرسة بنات أريحا ، حيث كان وأصدقاؤه يتسابقون لاحتلالها قبيل موعد مرور صديقاتهم طالبات مدرسة البنات ، وبعضهم لم يجد ما يجلس عليه ، افترش الأرض حين أدرك بأن ذلك هو المقهى الذي ينشده ، حيث كان الجميع يحملون بأيديهم كاسات بلاستيكية ، أشار بيده لصبي يدور بين الناس ، يحمل بيده وعاء لحمل فناجين الشاي والقهوة ، واصل الصبي دورانه دون أن يسأله عن طلبه..

- واحد شاي..

نادى بها ، وكأنها مطلع أغنية طويلة..

تذكر النداء ذاته ، في معظم المقاهي التي تردد عليها في أريحا ، ورام الله والقدس.. ، إنها ثقافة المقاهي الشعبية وطقوسها ، تتشابه معالمها وكذلك سلوك العاملين فيها..

لحظات ، حضر الصبي ذاته ، وراح يوزع الشاي على طالبيه..

- أريد فنجان قهوة .
- سيكلفك ذلك ضعف ثمن الشاي .
- سأدفع لك ما تطلبه.. أدفع ثلاثة أضعاف .

تحسس جيبه ، نقد الصبي خمسة جنيهات .

- تلكأ الصبي وهو يتظاهر بالبحث عن فكّة يعيدها لزيد..
- لا أريد شيئاً.. احتفظ بالباقي فهو لك شرط أن تسرع في إحضار القهوة..

دسّ الصبي الجنيهات في جيبه وانطلق نحو العريشة.. لحظات.. عاد حاملاً فنجان القهوة.. راح زيد يرشفه بشغف شديد.. كاد يبصقه ، لكنه أدرك أن عليه تعوّد ذلك ، إذ ربما كان بانتظار ما هو أسوأ من ذلك.. مدَّ يده إلى جيبه ، أخرج محارم الجيب التي كان اشتراها من الصبي على كورنيش النيل ليل البارحة ، جمع حثالة القهوة في فمه وألقى بها في المحرمة ، تفقد المكان قبل أن يغادره محاولاً الاقتراب من المعبر ، واستشراف أحواله.. آلآف المنتظرين قرب بوابة العبور ، وأعداد كبيرة لا تزال تتدفق دون جدوى ، فالمعبر لا يزال مغلقاً أمام العابرين.. وجنود الاحتلال ما زالوا يلوّحون بأسلحتهم في وجوه المتدافعين.. ويسمع بين الحين والآخر.. طلقات طائشة ، لكن أحداً لا يهتم.. توقف زيد ، حين أدرك استحالة تقدمه وسط الفوضى العارمة ، التي تعم المكان ، وقف زيد مذهولاً ، وقد أصابه إحباط شديد ، وشعور باليأس والعجز عن فعل شيء ، أي شيء يحمله عبر هذه البوابة المغلقة ، ويلقي به بعيداً خلف هذا الحاجز الحقير الذي يحول بينه وبين الدخول إلى فلسطين.. حدّق في الناس يحيطون به من كل جانب.. وحالهم لا تقل بؤساً عن حاله.. لا شك في أن أحلامهم تتقاطع هنا ، وتمنياتهم ليس أكثر من عبور هذه البوابة إلى الوطن..

حدَّق في الجموع المتدافعة أمام البوابة ، أحسّ بمرارة شديدة ، وانتصبت أمامه طوابير الإذلال أمام حواجز الاحتلال ، قبل أن يبعدوه إلى لبنان.. هز رأسه.. وهو يحدث نفسه..

-آهٍ على وطن نعبر إليه مثلما يعبر الآخرون إلى أوطانهم.. آه أيها الوطن المحاصر.. لماذا جعلتنا نحبك! لهذا الحد ، ونقبل بكل هذا الذل والعذاب من أجل أن نعبر إليك ؟! ، أما كان بالإمكان أن نختار وطناً آخر.. أقل جمالاً لكنه أكثر أمناً وسلاماً ؟! وطناً ليس فيه معابر ، والطريق إليه سالك وإن بصعوبة.. لم يسألك أحد ، أعرف ذلك.. لكنك تشبثت بحلمك ، قابضاً على

جمره.. لم يأتِ إليك ، لكنك سعيت إليه ، وكنت ستعطيه حياتك من أجل أن تبقى فيه ، بل كم مرة كدت أن تموت ، وأنت تحاول التسلل إليه.. أي وطن هذا وأي حب؟!!..

قرر الابتعاد عن المكان ، وقد أدرك أن لا فائدة من الوقوف أمام البوابة.. انتهز فرصة تراجع المتدافعين عند سماع زخّات من الرصاص أطلقها جنود الاحتلال ، فيما وقف عدد من الجنود المصريين محاولين إقناع الجمهور بالابتعاد عن البوابة.. انسلَّ زيد خارج الحشد المطبق عليه من كل جانب.. تنفس الصعداء حين وجد نفسه بعيداً.. وراح يبحث عن مكان يستظل به.. وقد بدأت الشمس ترتفع وسط السماء..

كان عليه أن يبحث عن مكان جديد ، إذ إن مكانه في المسجد ، ربما سبقه إليه أحدهم حال مغادرته له..

هام على وجهه لا يدري وجهته ، وكل ما كان يسعى إليه ، الابتعاد عن المكان ، والاختلاء بنفسه ، لعله يجد ما يُبعد عنه هذا المشهد..

فكر بالعودة إلى القاهرة ، ونسيان أمر العبور إلى غزة.. أو ربما العودة في وقت لاحق.. واصل ابتعاده عن المكان ، لولا صوت ناداه باسمه.. التفت إلى المنادي.. كان رمزي يشير إليه بالتوقف ، هرول نحوه ، كطفل وجد ضالته..

- أين أنت يا رجل ؟!
- أين أنا؟! أين أنت ، كلانا ضاع في الزحمة ، لم يكن من السهل أن يلتقي أحدنا الآخر وسط هذا الزحام..
- يبدو أن عبورنا لن يكون سهلاً..
- بلغني أن علينا الانتظار ، ربما أسبوعاً قبل أن يسمحو

لنا بالعبور..

- أسبوع؟!. وأين سنقضي هذا الأسبوع ؟!
- ربما نعود إلى القاهرة..
- وماذا سنفعل في القاهرة ؟!
- ماذا سنفعل هنا ؟!
- على الأقل.. نحن هنا أقرب إلى غزة..
- قدّام عينيّ ، وبعيد عليَّ.. رحم الله فريد الأطرش..
- ياه.. ألا تزال تحبه..
- كنت أحب الاستماع إلى أغانيه أيام الشباب..
- المهم.. ماذا سنفعل الآن ؟!

مهم جداً.. أن أجد مكاناً أستحم فيه.. وأبدّل ثيابي..

- اسمع.. تعال معي حيث أمضيت ليل البارحة في بيت قريب ، حوّله صاحبه إلى نزل.. وفيه حمام مشترك.
- وبكم أجرة الغرفة ؟
- أجرة الغرفة ؟!.. قل أجرة السرير..
- أجرة السرير خمسون جنيهاً..
- مع القمل أم بدونه؟!..

ضحك الاثنان وواصلا سيرهما باتجاه النزل .

غير بعيد عن مقهى العريشة ، وسط رمال تمتد جنوباً ، وغرف متلاصقة ، بدت من بعيد كأنها مدرسة ، اقتربا من البيت ، دخلا فناءه عبر بوابة من ألواح خشبية ثبتت بصفائح قديمة من زينكو وتنك يكاد يأكله الصدأ ، ولعلَّ ذلك ما يفسّر بقاءها مشرعة خوف تهالكها وانهيارها إذا ما كثر استعمالها ، التفَّ بعض النزلاء حول شجرة دوم كبيرة ، يكاد ظلها يغطي ساحة البيت ، طرحا السلام وواصل رمزي طريقه يتبعه زيد ، نحو زاوية البيت ، الذي بدا كأنه غرفة الإدارة ، أو حارس النزل ، بعد محادثة قصيرة ، أخرج زيد من جيبه خمسين جنيهاً ، نقدها للرجل.. الذي أشار بيده إلى الغرفة لكن رمزي طلب إليه أن يكون زيد معه في ذات الغرفة ، التفت الرجل إلى رمزي ، وقد همَّ بالتعليق ، لكنه تراجع عن ذلك ، ملتفتاً إلى زيد..

- لا تترك شيئاً ثميناً في الغرفة ، نحن غير مسؤولين عن ضياع أو سرقة أي شيء..

ابتسم زيد ، نظر إلى الرجل ، كأنما يبوح له بسر .

- ليس لديَّ ما يستحق السرقة..

- ما علينا إلا البلاغ..

- شكراً لك.. سلام عليكم .

حمل حقيبته بيده.. وتوجه مع رمزي إلى الغرفة.. لحظات.. وقف ببابها ، جال ببصره أنحاءها.. حمله المشهد إلى معسكر الفدائيين في الدامور جنوب بيروت.. لا تزال الغرفة تحتفظ ببقية من طلائها أول مرة ، وربما الأخيرة..

لكن الشيد الأبيض لم يعد كذلك ، بفعل عوامل الجو.. وبفعل النزلاء أيضاً.. حدّق في أغطية الأسرة.. لم يستطع التعرف على ألوانها.. همَّ بالعدول عن فكرة قضاء ليلة هنا.. لكنه استسلم حين أدرك غياب أية خيارات أخرى.. تقدم نحو السرير الذي كان رمزي يشير إليه.. ألقى حقيبته على السرير وراح يبحث فيها عن منشفة وما لديه من صابون وأدوات الحلاقة وفرشاة أسنانه.. وتحضّر لأخذ حمام سريع.. استأذن من رمزي وأسرع إلى الحمام.. فيما جلس رمزي على حافة السرير يقلّب أوراقه كأنما يبحث عن شيء ما ، أو ربما خطر بباله أن يتأكد من عدم ضياع أو سرقة أي منها.. عاد زيد إلى الغرفة ، وقد بدا عليه النشاط وكأنه لم يأخذ حمّاماً منذ أشهر.

- هناك مكتب ارتباط في الجانب المصري ، علينا مراجعته عّلنا نجد لديهم ما يفيدنا.. قال رمزي ، وهو يلم أوراقه ، دسَّ بعضها في جيبه ، وأعاد بعضها الآخر إلى الحقيبة ، نظر إلى زيد كأنما يطلب إليه أن يتبعه .

- إلى أين ؟!.. سأل زيد رمزي ، فيما كان منهمكاً في جمع حاجياته القليلة ، وإعادتها إلى حقيبته .

ألقى زيد نظرة سريعة على المكان ، كأنما يحفظ تفاصيله ، ليتعرف على سريره وغرفته حين يعود للنوم ، وانطلق مسرعاً نحو رمزي ، الذي سبقه إلى باب الحوش ، توقف هناك ، متبادلاً الحديث مع رجل ، حاول زيد التعرف إليه لكنه أدرك أنه لم يلتقيه قبل ذلك..

رد التحية ، وواصل سيره ببطء ، قبل أن ينتبه إليه رمزي ، ويدعوه للتعرف على مرافقه .

- هذا أبو العبد ، يعمل في إدارة شؤون العائدين ، وهذا زيد ، صديقي منذ زمن طويل ، ينتظر العبور إلى غزة..

واصل رمزي حديثه مع أبو العبد ، دقائق سلَّم عليه ، تبعه زيد وواصلا سيرهما..

- لا حاجة بنا للذهاب إلى الارتباط المصري ، فقد أخبرني أبو العبد للتو ، بأن دورنا للعبور إلى غزة ، يحين بعد ثلاثة أيام ، هناك ضغط شديد ، والإسرائيليون كعادتهم يضّيقون على الناس.. قال رمزي وهو يطوي ورقة في جيبه..

- وهل لهذه الورقة علاقة بالأمر؟!

- نعم.. إنها تصريح العودة.. سوف يأتي أبو العبد بعد ثلاثة أيام ، لاصطحابنا إلى المعبر .

- ثلاثة أيام ؟!..

- على الأقل ، نحن نعرف الآن متى سيحين دورنا.. انتظرنا سنوات ، لا بأس من الانتظار ثلاثة أيام أخرى.. لا ضير يا صديقي.. فلننتظر..

- وهل نملك غير ذلك؟!..

- تعال إذن نبحث عن شيء نفعله خلال هذه الأيام الثلاثة .

- وماذا سنفعل في رفح ؟!..

- اسمع.. قيل لي أن هناك بعض المقاهي المنتشرة على الشاطئ.. تعال نبحث عن سيارة تقلنا إلى هناك.. علَّ

السائق يعرف بعضها فيدلنا على مقهى مناسب..

لم يستغرقهم البحث عن سيارة وقتاً طويلاً ، فالمدينة صغيرة ، والمنطقة قريبة من مركز العبور ، وتعج بسيارات الأجرة في هذا الوقت.. استقلا سيارة الأجرة باتجاه البحر.. وانطلق السائق بهما ، بعد أن عرف حاجتهما.. فيما زيد ينظر إليه ، ويراقب حركاته.. دقائق قليلة ، توقفت السيارة أمام مقهى تفوح منه رائحة السمك..

- يبدو أننا وصلنا ، قال زيد .

- هذا مقهى ومطعم.. هنا تجدون أطيب الأسماك.. قال السائق معقبّاً .

- واضح.. ردَّ رمزي ، وقد وصلت إليه رائحة السمك المشوي .

ترجّلّ زيد ورمزي من السيارة ، فيما سبقهم السائق إلى صاحب المقهى..

- إنه يبيعنا.. قال زيد مخاطباً رمزي .

- إنها كذلك يا صديقي.. ردَّ رمزي وواصل حديثه معقباً..

- أرأيت كيف كان يقود السيارة ؟!

- هنا ، نحن على مشارف الصحراء.. لا فرق بين السيارة والجمل..

- عملياً.. كلاهما ركوبة !!

دخلا المقهى ، وهما يبتسمان.. فيما تقدم منهما صاحب المطعم.. رحب

بهما ودعاهما إلى الدخول مشيراً بيده إلى طاولة قريبة من نافذة كبيرة تطل على البحر.. بين سمك وشاي ونرجيلة.. أمضيا سحابة ذلك اليوم ، وقد أحسّا بحاجة إلى الاسترخاء.. حاول صاحب المطعم إقناعهما باستئجار شاليه يملكه على البحر.. حاول زيد إقناع رمزي بالأمر.. لكنه ما لبث أن تراجع حين تذكر موعدهما مع أبو العبد.. ما رأيك لو بحثنا عن أبو العبد ، وطلبنا إليه أن يأتينا بعد ثلاثة أيام هنا ؟!.. سأل زيد رمزي..

- وأين سنجد أبا العبد ؟!

- نسأل عنه في مكتب الارتباط.. لا عليك.. اترك الأمر لي..

- لماذا لا نبيت ليلتنا في النزل.. فقد دفعنا أجرة ليلتنا.. ثم نعود في الغد لنقضي ليلتين هنا؟!.

توجه رمزي إلى الرجل وقد استحسن فكرة زيد.. دفع له خمسين جنيهاً عربوناً ، على أن يعودا في اليوم التالي.. نظر إلى زيد ، وخرج يتبعه زيد ، استقل سيارة أجرة كانت تنتظر مع غيرها زبائن المقاهي و المطاعم المنتشرة على الشاطئ ، وتوجها إلى النزل.. استراحا قليلاً.. وخرجا يبحثان عن أبي العبد.. توجها إلى مكتب الارتباط ، كان أبو العبد وبعض زملائه يدخنون النرجيله ، نهض أبو العبد حال رؤيته رمزي ، حياهما ، فيما بدأ رمزي يشرح له تفاصيل عنوانهم الجديد ، راقت فكرة المقهى والشاليه لأبي العبد ، تدخل زيد قائلاً..

- زورونا تجدوا ما يسّركم..

ضحك ثلاثتهم ، تصافحوا وغادر زيد ورمزي مكتب الارتباط على وعد من أبي العبد بزيارتهم ليلاً في المقهى.. فيما كان رمزي وزيد يهمّان بالخروج للبحث عن سيارة أجرة.. استدرك أبو العبد ، وطلب إليهما الانتظار قليلاً..

عاد برفقة رجل آخر.. تبين لهما بأنه سائق إحدى سيارات مكتب الارتباط.. حين طلب إليه أبو العبد أن يوصلهما إلى وجهتهما ، شكراه من جديد واستقلا السيارة إلى المقهى.. كانت العتمة تنتشر في المكان.. الشوارع لم تر الإسفلت منذ أن شقتها السيارات العسكرية والدبابات أيام كانت تلك المنطقة معبراً لها ، في طريقها إلى صحراء سيناء ، بعضها لا يزال منتشراً في المكان ، معطّلاً ، أو بقايا هياكل من حديد ثقيل ، لم يستطع لصوص الخردة فكّها وأخذها لبيعها ، كانت سيارة الجيب العسكرية الروسية الصنع ، تنطلق عبر الطرقات الترابية ، فيما تشبث زيد ورمزي بمقعديهما ، وقد اطمأنا قليلاً حين سمعا السائق يبلغهما بأنهما سيعبران إلى الطريق المعبّد بعد قليل.. تنفسّا الصعداء ، عندما أحسّا بالسيارة تتوقف عن التأرجح والاهتزاز ، وتنساب بسلاسةٍ افتقداها منذ انطلاق سيارة الجيب من مكتب الارتباط ، لحظات.. توقفت السيارة أمام المقهى.. ترجلَّ زيد ورمزي ، شكرا السائق وتبعا رجلاً هب لاستقبالهما ودعاهما مرحباً بهما ، فيما كان آخر يتقدم منهما مرحباً ، مشيراً بيده إلى الطاولة نفسها قرب النافذة .

- إنها محجوزة لكما..

اصطحبهما صاحب المقهى إلى الطاولة ، مواصلاً ترحيبه بهما على الطريقة المصرية.. جال زيد ببصره أنحاء المقهى ورد على الرجل !

- يبدو أن المقهى كله محجوز لنا..

ضحك الجميع فيها راح صاحب المقهى يفسّر غياب الزبائن في مثل هذا الوقت ، أسند زيد يده على حافة النافذة ، وأطلق العنان لناظريه ، تعانق البحر ، كأنها تبحث عن مركب يحمله إلى حيث لا يدري ، إلى وطن أمضى حياته يسعى إليه ، حتى قبل طرده منه..

- لزج هذا الوطن.. كلما اقتربت منه.. انزلق من بين يديك

.

- أنت لا ترى الأمور كما هي.. الوطن باقٍ هنا ، لم يهرب ، أنت الذي هربت..

- لكني لم أهرب.. أنت تعرف أنهم طردوني ولم أكن أملك البقاء ، لقد أبعدوني إلى لبنان.. وأنت تعرف أيضاً كم مرة حاولت التسلل والعودة إلى رام الله.. كم مرة كدت أموت ، بل إني رأيت الموت مرات ومرات.. كل ذلك من أجل أن أعود.. لكنه مازال يرفضني..

- وطنك لا يرفضك يا عزيزي... بل إن هناك من يحبه أكثر مني..؟!.. لا ، لا.. لا أصدق أن أحداً يحبه أكثر مني..

- الحب يا عزيزي ليس كلاماً ، وقصائد تطرزها كل يوم في حب الوطن.. الحب ليس انتحارك ، وليس مظاهرات أمام عدسات المصورين.. حب الوطن يا عزيزي ، ليس خطاباً في حشد من الناس تخدعهم بمعسول الكلام وحلوه.. حب الوطن.. ثقافة وتربية لم نتعلّمها بعد.. حب الوطن ليس شعارات وهتافات في الشوارع ، ليس موتاً مجانياً .

- ومن قال إنه موت مجاني.. نموت من أجل أن يحيا..

- نعم.. نموت جميعاً ويحيا الوطن !! وما حاجتنا للوطن ، بعد أن نموت جميعاً ؟!..

- ماذا تريد أن تشرب ؟.. زيد.. ماذا تريد أن تشرب ؟..

أفاق زيد من شروده على صوت رمزي..

- أريد أن أشرب شيئاً يحملني إلى غزة.. ولا أصحو قبل أن أصل هناك .

- فهمت.. و لك ما تشتهي.. شرط أن تبقى معي ، ولا تهرب كعادتك..

- ليتني أستطيع الهرب..

- إلى أين ؟!

- لا أدري ، المهم أن أخرج من رفح..

- سنعبر إلى غزة.. هناك يا صديقي.. بعد يومين سنكون على بحر غزة.. وسنشبع من سمك أبو أحمد..

حملته تمنيات رمزي و تطميناته إلى مطعم غزة ، تذكّر أبو أحمد.. طباخ السمك الذي لم تفارقه صورته.. بضخامته وكرشه المنتفخ أمامه.. ويداه السحريتان..

- أتعلم يا رمزي.. لم أذق مثل سمك أبو أحمد هذا ، كنت في أفخم المطاعم في بيروت والقاهرة وحتى في أوروبا.. ولم أجد طعم السمك الذي كان يعدّه لنا أبو أحمد.. آه كم أشتهيه الآن..

- سنكون هناك بعد يومين.. لا عليك يا صديقي سنذهب إلى مطعم غزة ، وسنشبع سمكاً..

- ترى ماذا حلَّ بصاحب المطعم ، صديقنا محمد آل

رضوان .

- سمعت من أحد الأصدقاء انه توفي منذ سنتين .

- هل تعرف أنَّه كان شاعراً وأديباً ، كنا نجتمع في مطعمه ، شلة من الأدباء والمثقفين.. نناقش كتاباً جديداً ، أو نقرأ بعض ما كنا نكتبه في تلك الأيام..

- كنا نلتقي في مكتبة جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني ، مازلت أذكر ذلك..

- كانت أياماً حالكة السواد ، لكنها غنية بالثقافة والفنون.. في تلك الأيام بدأنا نضع ثقافتنا ونشكّل هويتنا الوطنية.. هزَّ رمزي رأسه مؤيداً.. فيما كان يطلب من النادل نرجيلتين وبعض المقبلات..

-

مضى الوقت ثقيلاً ، رغم أن زيداً يعشق البحر ، ويحب التأمل في موجه ، والغوص في أعماقه ، وأبعاده المترامية ، كان يتسلل وحيداً إلى شاطئ يافا ، يجلس قريباً من العجمي ، ويطلق العنان لأحلامه ، يحتفظ بدفتر صغير في جيبه ، يدّون فيه خاطرة أو فكرة كانت تنمو وتكبر أحياناً ، فيكتب قصيدة ، أو نثر يبث فيه ما يعتلج بداخله من خوالج متكسرّة ، أو حلم غير مكتمل ، يبحث في موج يلهث وراء موج ، يلتحم ببعضه ، ويستلقي على شاطئ يتعطش رمله لعناق البحر قبل أن يذوب فيه حاملاً معه ما تبقى من حلم حاول جاهداً أن يكمله.. لكن الموج كعادته.. كان أسرع في ابتلاع الحلم.. والحئول دون اكتماله.. في تلك الليلة.. جاء إليهم أبو العبد.. تناول بعض المشاوي وشرب ما تيسر من الشراب وغادر المقهى بعد أن وعد

بلقائهما في اليوم التالي..

انضم صاحب المقهى إلى زيد ورمزي.. وهي حالة تنم عن إحساس بالرضى وتواصل روحي في السلوك ، يتشابه فيه أصحاب المقاهي والمطاعم في كل الدنيا..

عندما همَّ زيد ورمزي بالمغادرة.. كانت الشمس تستعد ليوم جديد.. وقد بدت سعف النخيل تعانق الضياء القادم من الشرق.

- لماذا لا تبيتا هنا ؟!.. نظر زيد إلى رمزي معقبّاً .

- لاشيء لنا في النزل.. وحقائبنا معنا ، فلماذا نعود إلى هناك؟!

استعان صاحب المقهى بأحد عماله لمرافقة ضيفيه إلى الشاليه ، حيَّاهما متمنياً لهما نوماً هادئاً.. أمضى زيد ورمزي يومين هادئين ، مستغرقين سحابة ذلك اليوم في نوم لم يسبق لهما أن استغرقاه منذ وقت طويل.. ولولا نباح كلب في الجوار ، لاستغرقا في نومهما حتى آخر النهار ، أفاق زيد ونهض مسرعاً متبيناً ما يجري ، أطل من نافذة الشاليه ، لكنه تراجع حين رأى أحد العمال يحاول إبعاد الكلب عن المنطقة ، فيما يلحَّ الكلب في عوائه ، وكأنه يؤكد وجود غرباء في الشاليه ، زاد الكلب من شراسته ، وتقدم نحو باب الشاليه ، تقدم زيد بحذر نحو الباب ، أطل برأسه من شق صغير ، ما دفع الكلب إلى التقدم نحوه محاولاً الهجوم على زيد ، فيما انطلق العامل يرشق الكلب بالحجارة ، وينهره بعصا طويلة التقطها من الجوار ، التقت عينا زيد بعيني الكلب.. حدّقا ببعضهما ، لحظات ، بدأ الكلب بالتزام الهدوء و الاسترخاء.. أشار إلى العامل بالابتعاد ، والكف عن ملاحقة الكلب.. كان رمزي في الأثناء ، يقف خلف زيد ، طلب منه زيد أن يعطيه أي شيء للكلب.. ارتد رمزي يبحث عن شيء.. فيما زيد يتعجله.

في الأثناء وقع نظر زيد على طبق مغطى قرب الباب ، مدَّ يده بحذر يستطلع الأمر ، ليدرك أنَّ أحدهم أحضر فطوراً لهما ووضعه أمام الباب ، سحب الطبق إليه ، ألقى بما فيه من قطع اللحم باتجاه الكلب ، الذي هجم على اللحم يلتهمه وقد هدأ.. أشار زيد إلى العامل بالابتعاد عن المكان.. لحظات لم يتبقَ شيء مما ألقاه زيد للكلب ، فيما وقف الكلب مسترخياً ، يطل برأسه نحو زيد ، كأنما يستجديه المزيد.. بينما وقف زيد يشير إليه بحركات تؤكد للكلب بأنه ألقى إليه بكل ما لديه.. انسحب الكلب بعيداً ، كأنما أدرك صدق زيد.. و بأنه قدَّم إليه فطوره ، ولم يبق لديه شيء ، لكنه لم يشبع.. فراح يبحث عن طعام في مكان آخر.. تنفس زيد ورمزي الصعداء.. واطمأنا إلى رحيل الكلب وابتعاده.. فخرجا من الشاليه.. يبحثان عن نادل يحضر لهما قهوة وطعاماً.. استعداداً ليوم جديد..

لم يغادر زيد ورمزي الشاليه إلا في ساعة متأخرة ، تناولا العشاء في المطعم وعادا في ساعة متأخرة ليمضيا ليلتهما الثانية انتظاراً لليلة الثالثة ، حيث موعدهما للعبور إلى غزة.. لم يكن لديهما الكثير ليفعلانه نهار اليوم الثالث سوى انتظار الساعات التي كانت تمر ببطء شديد وبثقل لم يعهدانه من قبل.. لكنَّ زيداً لم يحتمل خبر تأجيل عبورهما إلى موعد لم يحدد ، حين جاءهما أبو العبد مساء تلك الليلة ، وأخبرهما بذلك .

- الإسرائيليون يتذرعون باكتشاف نفق قاموا بتفجيره .
- وهل ضبطوا أحداً هناك ؟
- الأنفاق موجودة منذ انسحابهم من سيناء ، وتقسيم رفح إلى شطرين ، ولا يحتاج المتسللون عبر هذه الأنفاق لأكثر من حفر أمتار قليلة للتنقل بين شطري المدينة ، وتهريب كل ما يريدون من الأسلحة إلى المخدرات ، إلى

البضائع ، إلى البشر أنفسهم..

انكفأ زيد على نفسه ، ولم يدرِ متى غلبه النعاس فجر ذلك اليوم ، فلم يصحَ من نومه قبل عصر اليوم التالي.. نهض متثاقلاً ، تعباً ، وكأنه لم ينم.. كانت صورة أنفاق رفح و اجتراح المقاومة لها بادئ الأمر لتهريب الأسلحة إلى المقاومة في غزة ، ماثلة أمام ناظريه ، حتى نجاح بعض أصدقائه من المطلوبين والمطاردين في اجتيازها إلى سيناء ومن ثم إلى الدول العربية ، مثلت أمامه وعادت إليه صورة ماهر ، الذي تسلل من بيت لحم إلى غزة عبر صحراء النقب ، ومن بعدها إلى رفح حيث نجح ورفيقاه في الوصول إلى سيناء عبر أحد تلك الأنفاق.. كانت قصص المتسللين تصلهم في بيروت وتونس.. بتفاصيلها التي غالباً ما كان يشوبها بعض المبالغة ، التي تعتمد على خيال الراوي في كثير من الأحيان..

لم يكن أبو العبد بحاجة إلى انتظارهم طويلاً فجر ذلك اليوم ، لاصطحابهم إلى الحافلة التي يستقلها ومجموعة من العائدين إلى غزة.. فقد جافاهم النوم ، ولم يستطيعا التغلب على القلق والإحساس بالرهبة والتفكير بما ينتظرهما.. الطريق طويلة.. والمعبر لا يزال بعيداً.. رغم الكيلو مترات التي تفصلهما عنه.. وقد آثر زيد التزام الصمت وإطلاق العنان لأفكاره المبعثرة .. يحاول لمّها ، لكنها لزجة تهرب من بين يديه.. تقفز تارة ، وتارة أخرى يبحث عنها فلا يجدها.. بعد قليل سيواجه الإسرائيليين الذين أذاقوه الأمرين ، وطاردوه حتى في لقمة عيشه.. عساكر الاحتلال ، الذين حرموه حتى من حبه.. نعم الاحتلال طارد حبه ، ومنعه من ممارسة حقه في الحب والحياة.. وهو ما دفعه إلى الانخراط في المقاومة حتى يتمكن من ممارسة حقه هذا ، والدفاع عن حبه ، وعن حبيبته رباب.. حتى حين قرر العودة والعبور إلى أريحا متسللاً ، مخاطراً بحياته ومعرضاً نفسه للموت على أيدي قوات الاحتلال وحرس الحدود المتربصين على طول نهر الأردن.. يومها..

لم يفكر زيد بغير العودة إلى أريحا.. والعيش قريباً من ذكريات طفولته التي عاشها بين بيارات البرتقال والليمون.. وبساتين الموز الريحاوي.. يطل عليها جبل قرنطل الذي يحضن أريحا.. ينغرس دير قرنطل في ذاكرته منذ أن غادر أريحا ، ولا يزال يعد خطواته التي اعتادت على تسلق الجبل عبر طرق جبلية وعرة ، شقَّها الرهبان المعتصمون في أروقة الدير المعلّق وسط الجبل منذ قرر رهبان اليونان التصوّف والاختلاء في صومعات حفروها بأيديهم ، وحبسوا أنفسهم فيها ، تقرباً إلى الله.. وسعياً إلى محبته.. وهرباً من اضطهاد الكنيسة وملاحقتها لهم في القرون الوسطى..

توقفت سيارة الجيب قرب حافلة كانت تنتظر ، وقد تبين لهما أنهم يجمعون العائدين في حافلات تنطلق إلى المعبر وفق سجلات وقوائم قام مكتب الارتباط بتنظيمها.. لحظات ، تقدم أحدهم وطلب إليهما التوجه إلى الحافلة بعد أن سأل عن اسميها ، صعدا إلى الحافلة ، فيما كان الرجل يتلو أسماء الركاب ، وما أن تأكد من حضورهم جميعاً ، أشار إلى السائق بالانطلاق وقد راح يعطي تعليماته بعدم مغادرة الحافلة والتقيد بالتعليمات ، طالباً إليهم التأكد من أوراقهم الثبوتية..

انطلقت الحافلة ، وسط صمت و ذهول الجميع ، وقد تعّلقت أنظارهم بالبوابة غير البعيدة ، حيث يرابط جنود الاحتلال ، أيديهم على الزناد ، وعيونهم شاخصة نحو الطريق المؤدي إلى المعبر تحسباً لأي طارئ..

حدّقَ زيد في المشهد غير مصدّق لما يراه ، ها هو يعبر إلى غزة ، تسارعت دقات قلبه ، وتداخلت كل الصور أمام عينيه ، و اختلطت المشاهد في رأسه ، فيما كانت الحافلة تقترب من البوابة ، أشار أحد الجنود إلى السائق بالتوقف وإطفاء المحرك.. لحظات ، صعد الجندي إلى الحافلة ، سأل الركاب

إن كان هناك من يحمل سلاحاً ، وحين أجابوه بالنفي ، طلب من السائق جمع الوثائق الشخصية لهم ، والتقدم نحو ساحة قريبة من المدخل الرئيس للمعبر ، أعاد المشهد لزيد ذكريات اعتقاله ، وعمليات الدهم التي عاشها قبل إبعاده إلى لبنان.. تقدمت الحافلة ببطء نحو الساحة حيث كان بانتظارهم جنود الاحتلال متأهبون ، انتشروا في المكان ، وأحاطوا بالحافلة ، طلب أحد الجنود من السائق وثائق الركاب التي جمعها ، وراح ينادي عليهم واحداً تلو الآخر ، ويطلب من كل واحد التقدم إلى القاعة عبر باب أشار إليه يُفضي إلى قاعة امتلأت بالعابرين رغم الوقت المبكّر ، دخل زيد وتوجه نحو مقعد خالٍ حيث أشار أحد الجنود المنتشرين في القاعة.. وكذا فعل الآخرون ، جلس زيد يحدّق في المشهد أمامه ، جنود الاحتلال مدججين بأسلحتهم ، وعدد غير قليل من رجال المخابرات ، وحاجز طويل على امتداد القاعة ، اتخذ الموظفون من الشرطة مواقعهم ، لاستقبال العائدين واحداً تلو الآخر ، بعد التدقيق في الأوراق الثبوتية ، يتوجه العائد برفقة اثنين من رجال الاحتلال ، أحدهما عسكري ، والآخر رجل مخابرات بلباسه المدني ، إلى باب في آخر القاعة ، انتظر دوره طويلاً ، عشرات من زملائه غيبهم الباب ساعات طويلة ، قبل أن يتبين بأنهم يخرجون من باب آخر ، بدأ زيد يضيق ذرعاً ، لكنه بعد حين ، أدرك أنَّ الأمر جزء من اللعب بأعصابهم و استنزاف تماسكهم ورباطة جأشهم يُمسك بما ضعف من خيوط أعصابه ، يشدها ويعيد توازنه من جديد ، لحظات سمع صوتاً ينادي أسمه ، نهض متوجهاً نحو الصوت ، أحاط به اثنان ، تبعهما إلى الباب ذاته ، في مشهد أعاده إلى أيام الاعتقال ، حين كان يتوجه إلى الزنزانة ، برفقة حراس السجن ، بعد أن يسلم كل ما لديه إلى الأمانات ، لا يختلف المشهد ، عن ذلك الذي كان قبل سنوات ، سوى ابتسامة مفتعلة ، وكلمات ترحيب لم يستطع تصديقها من رجل المخابرات الذي رافقه إلى غرفة خلف الباب ، تتوسط ممراً طويلاً ، وتجاوز غرفاً أخرى على جانبي الممر... توقف الجندي أمام

الغرفة ، فيما أشار رجل المخابرات إلى زيد بالدخول...

- تفضّل..

سمع صوتاً يناديه من الداخل.. لا يزال يذكر ذلك الصوت ، إنه هو ، الكابتن روني.. وكيف له أن ينساه.. لقد لازمه ذلك الصوت سنوات طويلة ، وانطبع في ذاكرته ، إنه الكابتن روني إذن.. يصر على ملاحقته .

- أهلاً بك في إسرائيل.. ألم أقل لك ، سوف تجدني أينما ذهبت ؟!

- بلا.. لقد كنت معي ولم تفارقني.. بل إنني كنت طوال الوقت أبحث عنك ثم إني لست في إسرائيل ، هذه أرض فلسطين المحتلة .

- كما أنت ، لم تتغير ، هانحن نلتقي ، لقاءً مختلفاً عن كل اللقاءات السابقة .

- كنت أتمنى لو التقيتك قبل ذلك...

- ماذا كنت ستفعل ؟

- لم أكره أحداً مثلما كرهتك .

- قدرنا أن نظل معاً .

- ليتكم تفهمون ذلك .

- أظن أننا سنفتح صفحة جديدة .

- لست واثقاً من ذلك..

- ألا تثق بذلك ؟!

- لا لست واثقاً بأنكم ستفعلون .

- لماذا عدت إذن ؟!

- أنا أعود إلى وطني.. وليس إليكم..

- لم تغيرك السنوات يا زيد .

- بلى ، غيرتني.. أكلت من عمري اثنتي عشرة سنة ، تعلمت منها الكثير..

- قلت لك ذلك قبل خمسة عشر عاماً.. ولم تأخذ بنصيحتي .

- ألم أقل لك ذلك.. أنا تعلمت الكثير ، لكنك كما أنت لم تتغير ، ولم تتعلّم.. أرأيت لماذا لا أثق بك ؟! أعطني أوراقي ودعني أذهب.. لا فائدة من الحديث معك...

- وماذا لو رفضت ؟!

- ستؤكد بذلك لون الصفحة الجديدة التي تحدثت عنها..

-

ابتسم الكابتن روني وهو يهز رأسه ويمد يده إلى زيد مصافحاً ، فيما أخذ أوراقه باليد الأخرى ، وخرج إلى الممر ، حيث كان بانتظاره شرطي اصطحبه إلى خارج المعبر...

3

وجد زيد نفسه وسط حشد خارج بوابة الخروج ، أدرك أنَّه الآن على أرض غزة ، اقترب منه شرطي بلباس عسكري ، اعتقد للوهلة الأولى ، أنه قادم لإعادته من حيث أتى ، أو ربما لاعتقاله ، مد الشرطي يده مصافحاً ، معرفاً بنفسه ، طالباً إليه مرافقته إلى ساحة قريبة ، امتلأت بالحافلات وسيارات الأجرة ، لحظات ، انطلقت الحافلة بعيداً عن المعبر.. تذكّر رمزي ، نهض من مقعده لكن رمزي لم يكن في الحافلة .

- ربما سبقني ، وغادر إلى غزة !!

- كان عليَّ أن أسأل عنه قبل مغادرتي المعبر ، قال ذلك لائماً نفسه ، وقد أحس بذنب كبير,,,

انطلقت الحافلة عبر فوضى عارمة ، حيث اختلط الركاب الباحثين عن سيارات تنقلهم إلى مدن قطاع غزة ، أو نداء السائقين ومشاجراتهم فيما وقف رجال شرطة عاجزين عن فعل شيء ، مستسلمين للفوضى ، التي بدت أكبر من أن يسيطر عليها ثلة من رجال الشرطة المسلحين بهراوات ليس إلا .

لحظات.. انطلقت الحافلة مبتعدةً عن المعبر ، عبر طريق كانت معبدة ذات يوم ، ولم تر الإسفلت منذ عبرتها دبابات وآليات الاحتلال قبل سبعة وعشرين عاماً .

أحس بتباطؤ الحافلة ، ثم توقفها ، اشرأبت أعناق الركاب تستوضح الأمر.. أطل عبر شباك الحافلة ، كان المشهد غريباً ولم يعتد عليه بعد ، عدد من

الجنود أحاطوا بالحافلة ، فيما احتشد أناس كثيرون وسط الطريق ، وعلى جانبيه ، أدرك حينها أنه حاجز عسكري ، اعتقد للوهلة الأولى أنه إسرائيلي ، مد يده إلى حقيبته الصغيرة ، التي حرص على حملها منذ أن صعد الحافلة التي أقلته من أمام فندق شبرد بالقاهرة قبل أربعة أيام ، بحث عن جواز سفره وأوراقه الثبوتية الأخرى ، لكنه سرعان ما توقف عن ذلك ، حين أحس بعدد من الجنود يصعدون إلى الحافلة..

اعتقد أنه أمام مشهد سينمائي ، عزز ذلك لديه وجود بعض المصوّرين في الموقع ، يتراكضون لاقتناص مقابلات وأحاديث صحفية ، وتصوير مشاهد العائدين وقصص العابرين إلى الوطن.. اقترب منه أحد الجنود ، حيَّاه بلكنة عربية سليمة ، سأله عن حال الطريق في الجانب الآخر ، حدّق زيد بالشاب الواقف أمامه ، اقترب من الجندي محدقاً في العلم المثبت على ياقته ، ارتد إلى الخلف وقد تأكد أنه العلم الفلسطيني..

- أهذا حاجز فلسطيني حقيقي.. ؟!! سأل زيد الجندي .

ابتسم الجندي.. قبل أن يرد عليه .

- نعم إنه حقيقي.. أنت في أراضي السلطة الوطنية الفلسطينية ، أهلاً بعودتكم ..

مسح زيد عينيه ، كأنما يتأكد من أنَّ ما يراه ليس حلماً.. اعتدل في مقعده ، وأطلق العنان لعينيه ، تدور في المكان ، فيما انطلقت الحافلة تشق طريقها وسط جموع من الناس المحتشدين على طول الطريق إلى غزة ، كان صمت الناس غاية في التعبير عن دهشتهم التي لم تكن أقلَّ من دهشة زيد ورفاقه ، ازدحمت الطرقات بالمارة وبالسيارات التي أطلقت صافراتها احتفالاً بالعائدين فيما كانت الحافلة تتوقف في الساحة القريبة من فندق فلسطين على شاطئ بحر غزة ، تراكض الناس حتى غابت الحافلة وسط

سيل من المحتشدين الذين غمروها ، ولم يعد عشرات رجال الشرطة الذين انتشروا في الساحة قادرين على حفظ النظام..

وقف زيد يحدق في النّاس علّه يعثر على أحد يعرفه ، اقترب أحدهم منه ، مدَّ يده مصافحاً..

- هل تنتظر أحداً ؟

- لا ، ولا أظن أحداً ينتظرني .

- نحن هنا بانتظاركم جميعاً..

قال مجاملاً ، وهو يربّت على كتف زيد ويدعوه لمرافقته .

- إلى أين ؟! سأل زيد الرجل وقد اطمأن إليه..

إلى ضيافة قريبة ، في منطقة الرمال ، تقيم فيها إلى أن تأتيك أوامر أخرى .

توجه زيد برفقة الرجل ، استقل سيارة كانت تنتظره في طرف الساحة ، وقد سبقه إليها ثلاثة رجال ، بدا عليهم أنهم من العائدين كذلك ، انطلقت السيارة عبر شوارع غزة ، وتوقفت غير بعيد عن شاطئ البحر ، لم ير في طريقه ما لفت نظره ، غير لافتة تشير إلى جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني ، وبعد ذلك لافتة أخرى مثبتة على جدار إحدى البنايات ، كتب عليها شارع الثلاثين ، الأسوار في غزة ، تعلو المنازل وتحجب الرؤية ، كان يكره شكل هذه البيوت التي تذكره بالسجن ، وأسواره العالية ، وقد تنفس الصعداء حين توقفت السيارة أمام بناية من طوابق عديدة ، كان يفضل أن يكون في منزل مستقل ، لكن الأسوار المحيطة بالمنازل ، جعلته يفضل شقة يطل من نافذتها فيرى ما يحيط به ، حدق بالبناية يعد طبقاتها ، لكن أحد زملائه سبقه قائلاً..

- تبدو البناية جديدة..

- هي واحدة من بنايات عالية ، بنيت حديثاً.. رد السائق مواصلاً حديثه عن التغيرات التي طرأت على مجتمع غزة في السنوات الأخيرة..

تبع زيد وزملاؤه مرافقهم إلى شقة في الطابق الثالث ، سارع إلى غرفة تطل نافذتها على البحر من بعيد ، ألقى بحقيبته إلى السرير كأنما يحجزه قبل أن يسبقه أحد إليه.. وراح يتفقد غرفة النوم والحمام ، أكثر ما يهمه ، بعد أن اطمأن إلى السرير والفراش ، اندفع إلى الحمام مطلقاً العنان للماء يندفع نحو جسده المتعرّق ، بحث عن شركائه في الشقة فلم يجد أحداً..

-يبدو أنهم غادروا.. قال محدّثاً نفسه..

توجه نحو النافذة.. كأنما أراد أن يتفقد المكان.. ويتعرف على موقعه.. كان الهدوء يخيم على الحي.. فالبناية في نهاية شارع فرعي.. لا يقصدها في أغلب الأحيان إلا ساكنوها.. وزوارهم القلائل.. وقد شغلت الشقق عائلات العائدين حديثاً إلى غزة..

لم تتغير غزة كثيراً ، شوارعها لا تزال ترابية ، والشوارع الرئيسة المعبدة ، لا تزال كما رآها آخر مرة ، قبل خمسة عشر عاماً ، قرر مغادرة الشقة ، لكنه تردد حين أدرك أنه لا يملك مفتاحاً لها ، جلس قرب النافذة ، مد بصره نحو الغرب حيث يمكنه رؤية البحر يطل بزرقته من بين أبراج وبنايات بدأت تحجب البحر عن أهل غزة ، أحس بارتياح شديد حين دخل أحدهم ، كان الشاب الذي رافقه وزملاؤه إلى الشقة ، يدخل حاملاً في يديه بعض الأكياس البلاستيكية ، تبين له أنها ساندويشات..

- أهلاً وسهلاً..

- أنا اسمي خليل ،
- وأنا اسمي زيد.. قال معرّفاً بنفسه ، وواصل حديثه..
- أشكرك على ذلك.. لكني لا أريد سوى المفتاح ، أريد أن أذهب إلى الشاطئ..
- أتريدني أن أرافقك ؟..
- ..إذا رغبت بذلك ,,, لكني أعرف المكان.. وأستطيع التجول راجلاً.. والعودة إلى الشقة..
- كما تريد.. هاك مفتاح الشقة..

أخذ المفتاح ودلف مغادراً ، رغم البنايات العالية لا تزال الشوارع مثلما كانت قبل خمس عشرة سنة ، كأن الزمن توقف عند شاطئ غزة ولم يدخل إلى حواريها ، الشوارع ترابية شقتها عربات تجرها البغال ، والكثير منها لا تزال تجرها الحمير الهرمة ، تعترض طريقها سيارات فرنسية من نوع بيجو مضى على صنعها أكثر من ربع قرن.. وأظن أن المصنع توقف عن إنتاجها منذ زمن بعيد ، وربما لا يوجد مثلها في أي بلد في العالم.. وصل إلى شارع الثلاثين ، أنه ذات الشارع الذي مر به قبل سنوات طويلة ، الدكاكين ذاتها ، ومحلات البقالة لا تزال تمتد على جانبيه ، لم تتبدّل ، ولم يطرأ عليها أي تغيير ، حتى أن كثيراً من أشجار الزينة التي كانت تتوسطه ، ذبلت ، فأضفت عليه بعداً آخر ينسجم وواقع الحال..

مثل سائح كان ذات يوم هنا.. واصل زيد طريقه التي يعرفها منذ كان هنا قبل خمس عشرة سنة ، يتوقف قبل أن يواصل سيره ، كأنما يتأكد من المشهد الذي لا يزال مرسوماً في ذاكرته...هنا الجامعة الإسلامية ، ثم

جامعة الأزهر.. تبدو زرقة البحر من بعيد ، وهناك على يمينه دار الحاكم المصري ، قبل احتلال القطاع وتحويل الدار إلى معسكر للجيش الإسرائيلي ، وبعد ذلك إلى معسكر اعتقال انتشرت في أرجائه الخيام التي امتلأت ذات يوم بالآلاف من شباب غزة ، حتى أطلق عليه أنصار2 ، أما أنصار1 فقد أقامه الإسرائيليون وسط صحراء النقب ، وكان من أسوأ المعتقلات خلال الانتفاضة الكبرى..

واصل سيره نحو الغرب ، يتوقف بين الحين والآخر يدور بنظره ، يتفقد المكان ، كأنما يستعيد ذاكرته ، وحين يدرك أن كل ما كان هنا ذات يوم ، لا يزال مثلما غادره قبل سنوات ، بدأت رائحة البحر تداهمه ، تسلل الأزرق من بعيد عبر بنايات لم يتعرف إليها بعد ، ها هو يعبر شارع البحر ، توقف قبالة مطعم أبو حصيرة ، كادت إحدى السيارات تدهمه وهو يحاول الانتقال إلى الرصيف الغربي ، اقترب من فندق ومطعم أبو هويدي فعرف أنه يقترب من مطعم غزة... لكنه توقف وقد اختلط الأمر عليه... شيء ما تغير هنا.. اقترب من رجل كان يقف بالجوار وسأله!.

- أليس مطعم غزة في هذا المكان ؟!

ابتسم الرجل ، وأجابه..

- بلى.. كان هنا ، لكنه لم يعد قائماً..

نظر إليه زيد.. كأنما يطلب إليه المزيد.. واصل الرجل حديثه.. وقد أدرك الأمر..

- توفي أبو زكي صاحب المطعم قبل سنوات ، فلم يعد هناك من يعتني بالمطعم وكما ترى فإن أصحاب الأرض يمهدونها لبناء مطعم جديد،

واصل زيد سيره ، شارد الذهن ، فقد سمع عن وفاة أبو زكي ، لكنه لم يعرف بأمر المطعم ، أفاق على يد تهزه..

- كنت أعرف أنني سألقاك هنا ، قرب مطعم غزة ، تعال ، تعال قبل أن تضيع مني ثانية .

- انتظرتك في المعبر ، وحين أدركت أنني أضعتك هناك ، كنت واثقاً من أنني سأجدك هنا.. كم آلمني إغلاق مطعم غزة.. فقد كان جزءاً من ذاكرة لا أريد لها أن تنمحي..

- تعال نشرب قهوتنا في فندق آدم حيث أقيم مع عدد كبير من العائدين ثم نبحث عن مكان نأكل فيه السمك..

دخلا إلى الفندق الذي أُقيم حديثاً ، وكأن صاحبه كان يعلم بتغير الحال ، فقد انتهى من تجهيزه قبل التوقيع على اتفاق أوسلو بقليل.. تبادلا الحديث مع بعض الحاضرين قبل أن يغادرا ، وقد ضاق المكان بالحاضرين ، تطوع أحدهم لمرافقتهم إلى مكان يعرفه ، ليس بعيداً عن فندق آدم.. استوقف ثلاث سيارات وطلب من السائقين أن يقلوهم إلى مكان قريب من مخيم الشاطئ.. حيث أقام أبو علي عريشة متواضعة ، وقد امتلك قارباً صغيراً.. يبحر فيه إلى عرض البحر.. يصطاد ما تيسر من السمك ، يساعده ابنه علي في انجاز الأمر.. مطعم غاية في البساطة ، لكنه غاية في الجمال.. وليس هناك من يقدم أشهى من أسماكه.. مشوياً ومقلياً .

اقترب زيد من رمزي وقد تذكّر أن عليه الاتصال برباب في رام الله ، فقد مضى يومان على دخوله غزة ولم يبلغهما بوصوله .

- اشتقت لسالم الصغير .

- سالم وللا أُم سالم ؟!

- أتعرف يا رمزي ، لا أدري ماذا أقول ، لكن أشياء كثيرة تغيرّت ، ولا أدري إن كنت زيداً الذي كان هنا ذات يوم ، السجن ، الإبعاد ، المنفى ، تبدّل الأصدقاء ألم تسمع فيروز تغني.. كبرت في الخارج.. كونت أهلاً آخرين ثم أخيراً العودة على هذا النحو.. كل ذلك وما تخلله ، يدفعني إلى الجنون أحياناً ، هل تعتقد أن من السهل الاحتفاظ بتوازنك في ظل ما مر بنا.. العمر قصير ، بل قصير جداً ، ولكني أحس بأن ما مررنا به خلال عقدين يكفي لأجيال .

- دعنا من كوابيسك ، وتعال نغادر إلى مطعم أبو علي..

أشار رمزي إلى مرافقهم بالانطلاق .

انطلقت السيارات عبر طرق وعرة ، ما دفع السائقين إلى الحذر وتجنب الوقوع في الحفر المنتشرة على طول الطريق فيما راح مرافقهم يعرّفهم بالأماكن التي يمرون بها ، هذا مخيم الشاطئ كما كان منذ عشرين عاماً ، لا شيء تغيّر ، حتى الحفرة التي تصب فيها مجاري المخيم ، لا تزال على حالها والحجارة والطوب المنتشر على أسطح البيوت لتثبيت ألواح الصفيح التي تغطي الأسطح ، فيما انتشرت هوائيات التلفزيون على مد النظر ، اتخذت سيارات الأجرة طريقاً جانبياً ، فيما خرج بعض الصبية يراقبون المشهد ، وكأنهم عرفوا بأن غرباء يدخلون مخيمهم ، بينما السيارات تقترب من تلة ليست بعيدة عن المخيم ، تشرف على البحر.. كان الرجل بانتظارهم.. وقد تعرّف على مرافقهم الذي ترجّل من السيارة التي وصلت أولاً.. صافحهم أبو علي مرحباً.. ودعاهم إلى العريشة .

كان زيد لا يزال مشدوداً إلى مشهد البحر ، وكأنه غير مصدق بأنه على شاطئ غزة .

- سننتظر قليلاً إلى أن يبتعد الدبّور عن المنطقة !.. قال أبو علي مخاطباً ضيوفه.. فيما راح مرافقهم يشرح لهم ما يعنيه أبو علي :

- الدبور.. قارب خفر السواحل الإسرائيلي الذي يجوب مياه غزة.. ويمنع الصيادين من النزول إلى البحر.. فينتهز الصيادون فرصة ابتعاده جنوباً ، يستغرق غيابه ساعة واحدة ، ويطلق عليه الصيادون هنا الدبور..

لقد ابتعد ، وعليَّ النزول إلى البحر لعليّ أصطاد لكم ما يكفي من السمك..

هرول أبو علي نحو قاربه الصغير ، دفعه إلى الماء وقفز إليه محاولاً بمجذافه المحافظة على توازنه ، وقف زيد مستنداً إلى العريشة ، محدقاً في القارب الصغير تتقاذفه الأمواج.. توقف غير بعيد عن الشاطئ ، لم يأبه زيد بدعوة الأصدقاء للانضمام إليهم.. فقد شده المنظر.. وربما انتابته مشاعر القلق والخوف.. فربما يفقد أبو علي حياته.. من أجل بعض السمك.. ينقّل بصره بين القارب الدبور الذي غيبّه البحر ، فلم يعد يراه..

كان الشاطئ ممتداً إلى الجنوب.. وقد بدت بعض البنايات العالية ترتفع على جانبه.. فتفسد براءته التي كان يحبها.. يبدو شاطئ الشيخ عجلين من بعيد.. يندفع ماء البحر نحو "المواصي" التي امتدت بساتينها حتى لامست أطراف دير البلح.. لا يزال طعم عنب الشيخ عجلين في فمه ، وقد ظل يتغنى به أينما حل وحيثما جلس... إذ لم يذق عنباً أطيب من ذاك الذي كان يأتيه مع كل قادم من غزة إلى رام الله..

أفاق من شروده على صوت علي ينادي والده ويحثه على العودة والإسراع في الخروج من البحر... نظر زيد إلى الجنوب... كان الدبور في طريقه إلى الشمال... أحس بالقلق على الرجل... أشار بيده وقد عجز عن فعل أي شيء آخر... بدا عليه القلق... انطلقت رصاصات من بعيد.. انضم الجميع إلى زيد وعلي يصرخون طالبين من الرجل العودة إلى الشاطئ... فيما القارب لا يتحرك...

- هناك شيء ما حدث لوالدي.. ليس من عادته أن يفعل ذلك..

قال علي والخوف بادٍ عليه.. انطلق نحو الشاطئ.. غير مبالٍ بنداءات انطلقت ترجوه أن يعود خوف أن يعرض نفسه للخطر..

كان الدّبور يقترب أكثر فأكثر.. فيما أبو علي لا يزال عالقاً في عرض البحر..

كان صوت الرصاص يقترب .

- من الأفضل أن نختبئ خلف العريشة..

قال مرافقهم وهو يشير إليهم بيده..

ألقى عليّ بنفسه في مياه البحر.. وراح يسبح باتجاه والده..

- ها هو قادم.. انظروا ها هو علي يصعد إلى القارب ويأخذ المجذاف من والده..

قال مرافقهم..

- يبدو أنه أصيب..

قال زيد وقد رأى الرجل يلقي بنفسه في قاع القارب فيما كان عليّ يجدّف مسرعاً نحو الشاطئ..

- هرول بعضهم نحو علي ووالده..

سحبوا القارب إلى الشاطئ ، وساعدوا الرجل في الوصول إلى العريشة ، فيما كان كتفه ينزف دماً..

- استدعوا سيارة الإسعاف .

- الإصابة طفيفة ، فلنأخذه في سيارة عادية إذ لا داعي للانتظار .

تدافع الناس ، فيما كان أحدهم يفتح باب السيارة ، ويشير إلى أحدهم لمساعدته في دفع أبو علي إلى المقعد الخلفي ، جلس علي إلى جوار والده ، فيما جلس زيد في المقعد الأمامي طالباً إلى السائق الانطلاق نحو المشفى .

- لنذهب إلى أقرب مشفى..

- ليس لنا سوى مشفى الشفاء..

- حسن ، أسرع من فضلك..

نظر زيد إلى علي وهو يشد والده إليه ، ويضمه إلى صدره.. فيما لم يرفع أبو علي نظره عن وجه ابنه.. يحاول أن يقول شيئاً.. لكنَّ علي يشير إليه أن يصمت .

- لا شيء يدعو للخوف ، الجرح طفيف... سوف تنجو... بانتظارك الكثير ، لا بد أن تراه... ثم إنك ستتركني أُعيل طابور خلفتك لوحدي...؟!

ابتسم أبو علي وهو يصغي لولده.. ولم يستطع حبس بعض حبات من الدمع تساقطت ، مسحها علي بظاهر يده ، وضم رأس والده إلى صدره ، وهو يقول..

- ..لا بأس عليك.. ها نحن وصلنا..

كان زيد ينظر إلى علي ، يحدق به ، بيديه اللتين تهدهدان والده ، بعينيه المعلقتين بوجهه وقد أدهشه سلوك الصبي ، وردة فعله إزاء ما حدث لوالده ، لهدوئه الذي لم يتوقعه من صبي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، تعامل مع الأمر كأنما تعود على ذلك.. ما أن وصلت السيارة إلى باب المستشفى ، حتى أسرع نحو غرفة الطوارئ ، أحضر نقالة ، طالباً من زيد والسائق مساعدته على رفع والده إلى النقالة ، وانطلق مسرعاً نحو غرفة الطوارئ ، تبعه زيد لكن أحد الأطباء طلب إليه الانتظار خارج الغرفة ، تقدم علي من الطبيب وقد رآه يطلب من زيد الانتظار خارج الغرفة.. تحدث إليه قليلاً.. عاد الطبيب إلى زيد مشيراً إليه بالدخول.. تقدم زيد فيما كان أحد الأطباء منهمكاً في تشخيص حاله والكشف عليه ، نظر إلى علي كأنما يسأله عن سر تغيير الطبيب لرأيه..

- أبداً.. قلت له إنك عمّي..

ابتسم زيد.. وحرص على ألا يراه الطبيب فيشك في الأمر..

يبدو أن "الدبور" أصاب عدداً من الصيادين ، فقد كانت غرفة الطوارئ على اتساعها تعج بالمصابين ، والفوضى تعم المكان ،

لم ير زيد ذلك المشهد من قبل ، جرحى ومرضى ، أطباء وممرضون يتراكضون ، وجلبة أحدثها ذوو الجرحى ، كلّ يسعى إلى الاطمئنان على أحد المصابين ، ربما كان أخاه أو قريبه أو ربما أحد جيرانه أو أحد أصدقائه .

- كان المستشفى أكثر ازدحاماً قبل أسابيع.. قال علي ، وقد لاحظ انبهار زيد بالمشهد..

اقترب علي من زيد ، حين لم يجبه ، فقد بدا زيد شارد الفكر زائغ النظر.. وقد أخذه المشهد بعيداً..

...أظن أنَّ أحد المصابين توفي.. إني أعرفه ، إنه ياسر ، ابن مخيمنا.. مخيم الشاطئ.. يأتي كل يوم إلى البحر.. محاولاً اصطياد بعض السمك ما أمكنه ذلك.. لكنهم يطلقون النار عليه ويمنعونه من نزول البحر.. يبدو أنَّ أولاد الحرام أصابوه هذه المرة.. يحاصروننا حتى من البحر.. إياك أن تصدقهّم ، إنهم كذابون مخادعون.. لا يريدون السلام.. يريدوننا أن نموت.. أنا أكرههم.. أكرههم..

- هوّن عليك وتعال نسأل عن والدك..

كان الممر مزدحماً ، ولا تزال جموع الزائرين يتقاطرون على الممر ، ويتجمهرون أمام غرف الطوارئ ، لكن علياً شق طريقه ، فيما وقف زيد ينظر إليه ، وقد غاب وسط الزحمة فلم يعد يراه.. انتحى جانباً ، وقد آثر عدم اللحاق به ، أو حتى التفكير في المجازفة بذلك ، لكن غياب علي لم يطل.. فقد رآه من بعيد ، يتقدم والده ، مندفعاً نحو باب الطوارئ ، طالباً طريقاً لوالده الذي لحق به متكئاً عليه.. لحظات كان أبو علي يخرج من الزحمة.. تقدم زيد من الرجل مهنئاً بسلامته ، طالباً إليه الاتكاء عليه ، فيما أشار إلى علي الإسراع في إحضار السيارة ونقله إلى البيت..

كان أبو علي محظوظاً ، فالرصاصة أصابت كتفه ، دون أن تخترقه،،

- أنا آسف يا أستاذ ، لكني أعدك بأن أُعوّضها قريباً .

- لا بأس عليك ، سنعود ثانية ، ولن تفلت منا ثانية..

ضحك الجميع ، فيما حاول أبو علي إقناع زيد بأن يذهب معهم إلى مطعم آخر..

- يا رجل ، لا تخف علينا ، سنتدبر أمرنا.. المهم أنك بخير ، لعن الله السمك..

- لعن الله الاحتلال..

- آمين .

ذهب أبو علي بصحبة ابنه علي إلى البيت ، فيما عاد زيد إلى أصحابه ، الذين انتظروا عودته.. طمأنهم وراحوا يبحثون عن مطعم آخر..

أحس زيد برغبة شديدة بالعودة إلى الشقة حيث يقيم ، لم يكن تعباً ، لكنه أحس بحاجة إلى الاختلاء بنفسه ، استأذن صاحب المطعم باستخدام الهاتف للاتصال برباب وطمأنتها على حاله.. وما أن انتهى حتى استأذنهم على وعد بلقائهم في وقت لاحق..

كاد يخطو نحو الرصيف المقابل عائداً إلى شقته ، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة حين خطرت له فكرة السير جنوباً بمحاذاة الشاطئ وقد رأى الشمس تتأهب للمغيب ، كلما أوغل في طريقه جنوباً ، كانت الطريق أكثر هدوءاً ، وان كان الأمر لا يخلو من بعض المتنزهين ، وبعض الشبان والصبايا ، الهاربين من المتطفلين الذين لا يروقهم صفو العشاق والأحبة ، أو حتى الباحثين عن متعة بريئة ، الحقول هنا.. لا تزال تنعم بخضرتها ، رغم أنَّ المباني بدأت تزحف جنوباً ، فتحيل اخضرار الحقول إلى اسمنت ينتشر في الحقول بشكل عشوائي لا علاقة له بالمكان ، أحس بحزن عميق

، وهو يحدق بأشتال العنب ، وقد بدأ العطش يأكلها ويدمرها ، بعد أن ضعف أصحابها أمام ارتفاع أسعار الأراضي ، فراحوا يقسمونها قطعاً صغيرة ، استعداداً لإقامة أبنية عليها..

اقترب من الشاطئ ، فيما كان الشفق ينتشر في الأفق يحيط بالشمس وهي تغيب في كومة من اللهب ، فينعكس احمرارها على صفحة البحر.. انه بحر غزة ، عند شاطئ الشيخ عجلين.. لا يزال المشهد جميلاً رغم التشوهات التي أحدثتها يد الإنسان ، يد الاحتلال من جهة ، ويد الناس العابرين إلى مدينة يجهلون استحقاقاتها ، وما ينتظرهم من جنونها..

جلس على صخرة على مرتفع يطل على البحر ، شده مشهد البحر يمتد ويتمطى على امتداد النظر كأنما يستسلم لمداعبة الشمس في آخر خيوطها وهي تنسحب خلف الأفق ، لا شيء هنا غير صمت يترنح على رتابة صوت الموج ، يضرب بعضه بعضاً ، كل موجة تسرع خلف سابقتها ، تلتحم بها قبل أن تستلقي على الشاطئ ، يحمله المشهد إلى شواطئ ربما ليست بعيدة ، في رحيله من شاطئ إلى آخر ، ربما كان يبحث عن شاطئه ، فلا يجده ، شاطئ غزة ، ذات الشاطئ في بيروت و الإسكندرية ، والعريش ، وتونس وغيرها من مدن المتوسط ، البحر هنا ، ليس ذاته هناك ، والشاطئ مختلف أيضاً ، لا أحد يصدق ذلك ، سينعته أصدقاؤه بالرومانسية ، والتعصب لفلسطين ، فكل شيء هنا يختلف عن مثيله في أي بلد آخر ، هكذا كان يقول وهكذا كان يراه ، مختلفاً فعلاً ، كل شيء هنا مختلف ، وللأشياء طعم آخر ، للبحر رائحة لا مثيل لها ، وهو الذي حين عيل صبره ، وضاقت به السبل ، حاول إقناع نفسه بأن وطنه حيثما حل وحيثما وجد أصدقاء ، ..وربما أهلاً آخرين.. ليس من السهل أن تفهم هذا التعلّق بالوطن.. لماذا نتعلق بأوطاننا.. أهم الأهل والأصدقاء ، أم الأرض التي مشينا عليها وكبرنا في أحضانها ، أم البيت الذي ضمنا.. أهو المكان أم الزمان أم هي الذكريات

التي نحملها في أعماقنا.. أم كل ذلك.. لا أظن أن أحداً يملك جواباً شافياً ومقنعاً.. لكنه يعود في كل مرة ، يغلبه الحنين ، معلناً.. لا شيء يعدل الوطن.. كأنما يقطع الطريق على أي إحساس بالاستسلام.. نعم ، لا شيء يعدل الوطن..

نهض مغادراً.. وقد أدرك أن الوقت أخذه ساعات عدة .

كانت الطريق إلى المدينة ، لا تزال تعجّ بالعديد من المتنزهين أو الباحثين عن شيء ما في داخلهم ، أو الراغبين بالاختلاء إلى ذاتهم.. أو لأغراض أخرى كثيرة.. أحس بفرح طفولي وهو ينظر إلى الشاطئ مزدحماً بالزائرين.. أحس براحة وهو يواصل طريقه نحو شقته.. ها هي غزة لا يختلف ليلها عن ليل كثير من المدن.. وإن كان الليل هنا أقل عهراً ، من عهر ليل المدن الأخرى.. غزة لا تزال بريئة عذراء لم يمسسها بشر.. أو هكذا رآها في الليلة الأولى .

كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل.. أحس بتعب شديد.. لكنه لا يشعر بالنعاس ، دخل إلى المطبخ وقد قرر أن يشرب القهوة..

أخذ فنجان القهوة ، واختار زاوية في الشرفة حيث يبدو بحر غزة من بعيد ، جلس محدقاً في المشهد الممتد أمامه ، زرقة البحر غرقت في ظلمة الليل التي أحالته إلى عتمة مطبقة ، لا يكسرها غير أضواء خافتة ، ربما كانت منبعثة من "دبور" إسرائيلي ، يجوب البحر شمالاً وجنوباً ، يحاصر شواطئ غزة ، وربما كان ذات الدبور ، الذي أطلق النار على قوارب الصيد ظهر ذلك اليوم.. فقتل أحد الصيادين ، وجرح آخرين ، كان أبو علي واحداً منهم .

الشوارع المحيطة تكاد تخلو من المارة.. والصمت مطبق ، لولا صوت الموج يصل إلى مسامعه ، كلما ارتطم بالشاطئ.. أو تلاطمت أمواجه.. تبدو مدينة غزة غارقة في نومها ، أخذ فنجان القهوة بيده ، نهض من مكانه يحدق في المدينة ، شوارعها ، أضواء بيوتها الخافتة ، لا أحد هنا ، كلهم غارقون في

نومهم ، زمَّ شفتيه تعبيراً عن استغرابه من أهل غزة ، لديهم هذا البحر الرائع.. ولا يقدرونه ولا يستمتعون به.. بل يؤثرون النوم باكراً ، طالما أحب المدن الساحلية ، بل وتمنى العيش في إحداها على بحر.. أي بحر.. كان يرى رام الله وقد أصبحت على شاطئ المتوسط ، بعد أن تسللت مياهه عبر السهل الساحلي لتغرق المدن والقرى في طريقها نحو رام الله.. وتتوقف هناك عند منحدرات عين مصباح.. الحي الذي أحبه منذ طفولته ، ومنذ ذلك اليوم ، لا يزال يحلم ببيت صغير.. على شاطئ رام الله.. ولم ينس أبداً أن يحلم بامرأة جميلة.. تعيش معه في ذات المكان.. امرأة أحبها وحملها معه أينما ارتحل .

لازمه الحلم.. ذات الحلم في رحلته الطويلة ، لكن رام الله لا تزال تنتشر على جبالها.. يغمرها بحر الظلمات الذي لا يزال يحتلها ويغمرها منذ عشرات السنين ، حاملاً إليها الموت والدمار والحقد الذي يحمله جنود الاحتلال ، إنهم يغارون منها.. تماماً مثلما تغار تل أبيب من يافا.. رغم الدمار الذي أحدثه المحتلون في أحيائها.. نعم.. المدن تغار من بعضها.. مثلما البشر .

4

قد تكون الصورة واقعاً حسيّاً ، لكنها ليست كذلك بالمطلق ، صحيح أن الصورة انعكاس لواقع لحظي ، لكنه يحتمل قراءات أخرى ، تماماً مثل أي نص أدبي ، يتأثر معناه ، بحالة القارئ في تلك اللحظة ، وعلى أية حال ، فإن للنص كما للصورة ، كما للشعر ، معانٍ أخرى لا ندركها ولا نلتقطها ، ما خفي دائماً أعظم ، وأكثر سحراً وجمالاً ،

من هنا ، فإنَّ البراءة التي قد نراها في صورة ما ، ليست إلا خداعاً بصرياً ، مثل تلك البراءة التي نراها في جسد امرأة جميلة ، إنها براءة تدفعك إلى الشك في نزاهة بصرك ، لأن قراءتك للنص ليست بريئة ، وعيناك اللتان ترى فيها الأشياء والصور المختلفة مصنوعة من زجاج ، تحمل في ثناياها بعداً آخر يضع النص والصورة في قراءة تختلف في كل مرة عن سابقتها ، فتختلط الأبعاد ، حداثوية كانت أم واقعية ، ويسقط المتخيل في مفاهيم تصنعها ذاكرة لا تزال تبحث عن عناوين فتية ، لحكايات ترهّلت وأحاطت بها خيوط العنكبوت من كل الأنحاء ، بدا وكأنه يستعيد نصاً قرأه ذات يوم ، أو صورة رآها معلقة على جدران أحد المعارض ،

غرق زيد في الحديث مع نفسه كأنما يستعيد نصاً قرأه في صحيفة أو كتاب ، وقد اعتاد على ذلك ، بل وأصبح ذلك جزءاً من سلوكه ، كان يدور بنظره أنحاء المشهد المنتصب أمامه ، كأنه لوحة لا صلة لها بالواقع...

يتحسس عينيه ، كأنما يتأكد من صحوه ، إنه في غزة ، ولبحر غزة رائحة تختلف عن رائحة أي بحر آخر ، لم ينسها ، رغم ابتعاده عنها ، ربما لأنه

أحبها منذ لقائه الأول بها.. وربما هي البراءة التي رآها في المدينة والمشهد الأول لها.. الذي انطبع ولا يزال في ذاكرته ، رغم خيوط العنكبوت التي تحيط بها ، فالنص ، الصورة ، لا تزال مطبوعة في أعماقه ولم تفارقه أبداً.. رائحة البحر هنا تتسلل عبر حارات المدينة ، فتبعث النعاس في عيون أهلها.. بعد ما كانوا أمضوا يومهم هناك على شاطئ البحر.. رآهم زيد.. والصورة أبلغ من المتخيل.. رآهم عند البحر.. كأنما ينتظرون شيئاً ما.. لكنه تخيلهم هناك.. يقفون منذ آلآف السنين.. وقف ينظر إليهم.. وعلى الرصيف المقابل.. كان صوت فيروز يصدح مستجدياً :

تع ولا تجي

وأكذب عليَّ

الكذبة مش خطية

أوعدني إنو راح تجي

وتعا ....ولا تجي

ذات المشهد الذي رآه قبل اثنتي عشرة سنة وأكثر.. والذي لازمه أينما رحل ، لكن واقع اللحظة مختلف ، الحلم أجمل من الواقع ، والمتخيل كان ذات يوم ، أجمل مما يراه الآن.. فنحن نجمّل أحلامنا فتبدو الأشياء أكثر تألقاً ، وخصوصاً ، الأشياء التي نحبها ، نتخيلها في أجمل حال ، هكذا هي غزة اليوم ، يعود إليها ، لا شك في جمالها.. لكنها أكثر جمالاً في المتخيل الذي رسمه لها في الغربة..

أفاق من شروده على صوت المؤذن.. أدرك أن الوقت مر دون أن يحس به.. نهض من مكانه ، وغادر الشرفة إلى سريره..

أمضى ليلته تلك مرتحلاً ، حاملاً بيده حقيبته الصغيرة التي اعتاد على حملها في أسفاره.. زاره طيف ايزابيل الغجرية في تلك الليلة.. حمل حقيبته وراح يركض نحو المقهى القريب هرباً من المطر الذي اشتد في تلك اللحظة.. أحسّ بارتياح حين نظر إلى مقعده الذي اعتاد عليه ، في زاوية المقهى الباريسي ذاته الذي كان يرتاده كلما ضاقت به شوارع باريس على اتساعها ،،،عصر ذلك اليوم ، أحضر له النادل قهوته ، وجلس مطلقاً العنان لنظره محدّقاً في حبات المطر المتساقط على طول الشارع الممتد أمامه ، مثل رسام وقف يتأمل لوحته ويبحث في أعماقه عن متخيل يعينه على إخراج لوحته كما يشتهي ، يلقي ريشته بعيداً ، وقد أحس بأنه استنفذ مخزونه كله حين اقتحمت عليه وحدته صبية التجأت إليه ، مبللة الثياب ، لم يلحظ دموعها للوهلة الأولى ، وقد اختلطت بحبات المطر ، التي تساقطت من خصلات شعرها ، جلست إلى جواره دون أن تستأذنه ، كانت ترتجف من البرد ، وقد التصق قميصها بجسدها ، فزادها إثارة ، حين وقع نظره على صدرها الفتي ، كرمانة انتصبت حلمتها ، أبعد نظره وقد أحس بالحرج ، خلع معطفه وألقاه على ظهرها ، مد يده وهو يدعوها لمرافقته ، أخذها إلى شقته ذات الغرفة الواحدة في الشارع المتفرع عن شارع سان جرمان ، غير بعيد عن المقهى ذاته ، ولم تفارق الغجرية سريره ثلاثة أيام.. حتى شفيت من الزكام والبرد الذي أصابها ،

في الأمسيات الثلاث ، كانت إيزابيل تزحف إليه مثل قطة لسعها البرد ، فراحت تبحث عن دفء افتقدته ، ثلاثة أيام كانت تسترخي عارية بين ذراعيه ، تدفع جسدها الغض إلى جسده الملتهب ، تلتصق به ، ينظر إليها ، يمرر نظره على تفاصيل جسدها ، وحين يدرك بأنها طازجة تكاد عناقيدها تسقط بين يديه.. يهمّ بها ، لكنه لا يلبث أن يتراجع حين تتململ وتفتح عينيها بثقل شديد ، يغلبها النعاس ويهدّها المرض ، يمد يده إلى جبهتها ، يدس يده تحت رأسها ، يضمها إليه.. فيما يده الأخرى تمسح العرق الذي

انهمر من جبهتها ، يتسلل من سريره نحو الحمام.. يلتقط خرقة يغرقها بالماء ، ويعود إلى إيزابيل يبلل جبينها ويمسح ما علق به من تعرق ، لتعود إلى حضنه ثانية ، تلتصق به ، وهو يشدها إليه ، غلبها النعاس ، مد يده إلى جبينها ، وحين اطمأن إلى حالها.. تسلل بعيداً ، استلقى على كنبة وقد أحس بتعب شديد ورغبة في النوم..

حين أفاق صباح اليوم التالي.. بحث عن إيزابيل فلم يجدها ، وحين رأى باب شقته مشرعاً ، أدرك أنها غادرت .

دخل في كآبة شديدة ، لازمته أياماً طويلة ، اعتاد عليها ، وتعلّق بها ولو كان يملك لأبقاها عنده.. لكن شيئاً ما دفعها للرحيل هكذا..

أفاق زيد من نومه منزعجاً.. وحين عاد إلى وعيه ، وقد استغرقه ذلك وقتاً.. حدّق في ذاكرته التي حملت إليه في تلك الليلة إيزابيل.. نهض من سريره متسائلاً..

ما الذي جاء بها في هذه الليلة ، وقد كاد ينساها ويطوي تلك الحادثة ؟!

الفرق بين ذاكرة الإنسان وذاكرة الحاسوب أننا لا نملك أن نمحي ما نخزنّه في هذه الذاكرة ، نعتقد ذلك ، فنقع في وهم اعتقادنا ، ونكذب على أنفسنا ، نكتشف ذلك ، حين تدهمنا الصور التي كنا اعتقدنا أنها لم تعد في ذاكرتنا.. تنتصب أمامنا إذا ما رأينا شبهاً لها ، أو في حلم لا نملك تفسيراً له ، ولا نملك جواباً لسؤالنا.. لماذا الآن ؟! ولماذا إيزابيل بالذات؟!

جلس في المطبخ يشرب قهوته.. بعد أن دار على الغرف بحثاً عن زملائه المقيمين معه في الشقة حين لم يسمع صوتاً ، ولم يلاحظ وجود أحد في الشقة غيره.. أدرك أن لا أحد من زملائه هناك.. عاد إلى المطبخ ، حدق في الصمت المطبق من حوله.. والصمت أحياناً أبلغ من الكلام.. وأكثر عمقاً

، والصور مثل الكلمات ، تتشابه وان اختلفت مدلولاتها ، من هنا كان التشابه بين الشعراء والرسامين.. فالقصيدة لوحة.. وان كانت اللوحة أبعد تخيلاً.. وارتباط الحلم بما تشكّل من لوحات في الذاكرة ، يجعل الحلم أكثر عمقاً من الواقع ، فنحن نعبّر عن تمنياتنا في أحلامنا.. أما الواقع فيتشكل بتدخل أقل.. لأنه يفرض علينا في معظم الأحيان..

ذلك شكل من أشكال العبثية وإغراق فيها ، بل إن ما نلمسه من براءة في المتخيل الذي يتجسد في أحلامنا أحياناً ، يحمل في أحشائه أبعاداً أخرى غير ما نلمسه.. إنه كلام أفلت من الشاعر ، وخيال لم يستطع الرسام الاقتراب منه وصور لم تكتمل ملامحها في محاولات الشاعر استنساخ ذاته ولا الروائي حين يسعى إلى استحضار شخوصه ، لتتبعه وتقلده ، يجلس هناك مطلقاً العنان لخياله ، وذاكرته التي تزدحم الصور على عتباتها ، هذا الانتظار العبثي ، يدفعه إلى الإمعان في صمته ، لا شيء في ذاكرته يشبه ما يراه.. هنا لا شيء يشبه الواقع الذي يحاول الاقتراب منه ، الواقع هنا لا شيء يشبهه في المتخيل ، حالة من الانتظار.. الكل يشارك فيها دون أن يعرفوا إلى أين تأخذهم وقائع هذا الزمن...لكن الجميع في هذا المتخيل.. الرسام والكاتب والروائي يستحضرون بشراً يقلدونهم ووقائع تشبه تلك التي مرت بهم.. أو مروا بها ، هكذا يتشكل النص ، رسماً كان أم حكاية ، عناصرها البشر يتحركون في دائرة لا يملكون تحديد معالمها ، أو حتى إطارها ، يتغير شكل النص بتغير الواقع.. والواقع تحدده الوقائع... والوقائع نص غير مكتمل ، لصور يتم تركيبها وليس لها إطار أو حدود .

ثلاثة أيام مضت على دخوله غزة ، لا يزال مشدوداً يتحسس وقع أقدامه ، كأنما يتأكد من حقيقة ما يراه ، يغادر شقته القريبة من شارع الثلاثين نحو الشاطئ.. يتردد على الأماكن التي زارها قبل اثنتي عشرة سنة ، البحر ذات البحر ، والشاطئ ذاته ، لكن النَّاس تغيروا ، ربما غرقوا في ذهولهم

، حين عجزوا عن فهم ما يجري ، فهاموا على وجوههم ، يبحثون عن إجابات لتساؤلات ازدحمت على شفاههم فانعقدت ألسنتهم ، وتحجرّت مشاعرهم أمام مشهد لم يعهدوه ، وما كان لأحد أن يتوقعه ، مهما بلغ جموح أحلامه،،،

ثلاثة أيام اتصل خلالها بزوجته رباب مرة واحدة ، وكان معظم الحديث بينهما عن ابنه سالم الذي لم يره منذ حمله جنود الاحتلال وأبعدوه إلى لبنان ، أما رباب فقد اختلطت مشاعره نحوها ، فلم يعد قادراً على تحديد معالمها ، يغمره الشوق لرام الله ، شوارعها ، ساحاتها ، قرميدها العتيق ، أو ما تبقى منه.. ابنه سالم ، أصدقاؤه.. لكن رباب وذكرياته معها ، فقد تراجعت إلى ركن قصي في ذاكرته.. استوقفه ذلك التبدّل ، وبدأ يلح عليه عصر ذلك اليوم ، حين أخذته الطريق إلى مرتفع يطل على البحر قرب شاطئ الشيخ عجلين ، لكنه سرعان ما أحس برغبته في مغادرة المكان ، حين وقع نظره على مقهى قريب أقيم حديثاً على أرض أبو مديّن على الشاطئ الجنوبي لمدينة غزة.. اختار مكاناً قصياً يطل على البحر ، وجلس بانتظار النادل .

- يبدو أنك من العائدين !
- نعم.. أنا منهم .
- أهلاً بك.. ماذا أقدم لك..؟
- أريد أولاً فنجان قهوة ، وسنرى لاحقاً ما لديكم .

انطلق النادل مبتعداً فيما أخرج زيد دفتر ملاحظاته الذي ظل يلازمه طول الوقت ، حتى أصبح الأمر عادة لم تفارقه.. فجأة قفزت رباب إلى أوراقه ثانية.. حاول إبعادها أو الهرب منها.. لكنها ظلت عالقة بأوراقه ، تحدق

به.. كأنما تنتظر جواباً لسؤال يعرفه جيداً.. لكنه يجهل الإجابة عليه..

- ما سرّ هذا البرود.. لماذا لم تتصل..؟! إن لم يكن برباب ، لماذا لم تتصل بابنك سالم ؟!

قفزت الأسئلة أمامه.. دون أن ينجح في الهرب منها.. كلما هرب من سؤال.. حاصره سؤال آخر..

- أليست رباب حبيبتك التي ضحت من أجلك ، وانتظرتك كل هذه السنين ؟!

- بلى.. لكني لا أدري من أين جاءتني برودة مشاعري تجاهها.. أدري أنني أحببتها حباً صادقاً ، ومازلت أحبها حتى اليوم ، هل هو البعد كما يقولون.. أم أن الغربة غيرتني.. وقتلت حرارة المشاعر بداخلي؟!.. لعله السفر والارتحال.. أعاد اصطفاف مشاعري.. فاختلطت أوراقي وفقدت الانبهار والدهشة.

- لكنها رباب.. رباب التي أعطتك ما لديها وأكثر.. وانتظرتك سنوات طويلة.. ولم تبدِ تذمراً أو شكوى..

- وأنا ، لم أنس ذلك.. لكنني أتحدث عن مشاعر لا أملك قراراً في تشكيلها..

- العيب فيك..

- نعم العيب فيَّ.. وأنا أعترف بذلك .

- لكن ذلك لن يغير شيئاً..

- أهي واحدة أخرى ؟

- أبداً.. أقمت علاقات كثيرة.. لكنها علاقات مسافر ، ومحطات كنت أُبدلها في حليّ و ترحالي.. ولم أعد أذكر غير الأوقات الطيبة التي أمضيتها معهن.. أما أشكالهن فلم يعلق بذاكرتي شيء منها..

- لكنك تحبهن ؟!

- ومن منا لا يحب النساء ؟!..ليس رجلاً من لا يحبهن.. إنهن أجمل ما في هذه الدنيا.. لكنهن مثل النار في الشتاء.. تشتهيها ، فتقترب منها سعياً إلى دفئها.. فإن اقتربت كثيراً ، احترقت بلهيبها.. ورغم ذلك.. لا تكف عن البحث عنها والسعي إليها..

- هل أُحضر لك شيئاً آخر ؟

كاد زيد أن يرد على السائل.. لكن نظره وقع على النادل يقف أمامه.. أفاق من شروده.. نظر إليه ، حدَّق به كأنما يريد أن يسأله عن أمرٍ ما.. لكنه تراجع حين أفاق من شروده ، وأدرك أنَّ من غير المناسب إقحامه في أمر لا يعنيه.. انجذب نحو النادل ، حدَّق به وراح يتأمله ، شيء ما استوقفه وجعله يتردد في الإجابة ، لكن وقوف النادل أمامه دفعه إلى اتخاذ موقف سريع..

- ما اسمك ؟..

- عزيز.. اسمي عزيز..

- ومن أين أنت يا عزيز ؟..

- أنا من السوافير ، وأقيم مع عائلتي في مخيم المغازي وسط غزة..

- أشار زيد للنادل بالجلوس.. لكن هذا رفض معتذراً ، إذ لا يجوز للعاملين الجلوس مع الزبائن .

- حسن.. هات طبقاً من السمك.. واحرص على وجود السلطان إبراهيم .

- سأحاول جهدي ، فالفصل ليس فصل هذا النوع من السمك .

انطلق النادل نحو المطبخ فيما عاد زيد إلى شروده محدقاً في موج البحر يحط رحاله عند الشاطئ .

كانت الشمس تلم خيوطها التي تناثرت على صفحات المتوسط فيما كان شاطئ غزة يغرق في العتمة رويداً رويداً ، وتتلون صفحة الماء بالأحمر ، ويزداد احمرارها ، كلما أوغلت الشمس في غيابها .

أخذه المنظر ، وشده ، حتى أنه فقد الإحساس بالوقت ، وغرق في المشهد بأبعاده التي لم يعد يدرك لها حدوداً.. يذوب في توحده ، لا شيء يقطع ذلك ، سوى إصرار النادل بين الحين والآخر على أن يسأله إن كان يرغب في شيء آخر..

نظر حوله ، فوجئ بخلو المكان من الزبائن.. نظر إلى ساعته ، نهض استعداداً لمغادرة المطعم وقد أدرك أن الوقت بات متأخراً.. اقترب النادل منه يحمل فاتورة الحساب ، دفع ما عليه وغادر مسرعاً.. صعد الدرجات

المؤدية إلى الشارع العام.. لكنه توقف قبل الوصول إلى الشارع حين ناداه أحدهم طالباً منه التوقف وعدم الدخول إلى الشارع.. استدار مستوضحاً ما يجري.. لكن عيارات نارية انطلقت كانت كافية لتوضيح الأمر..

انبطح أرضاً وهو ينظر خلفه حيث انطلق الصوت محذراً..

- جنود الاحتلال في الشارع ، انتظر قليلاً حتى يغادروا..

- إنهم هنا ، ولم يغادروا..

قال في نفسه وقد أدرك أنَّ الاحتلال لا يزال هنا ولم يغادر قطاع غزة ، ضحك هزءاً ، وقد أدرك سخف ما يجري .

- أي سلام هذا ؟! قال أحد المارة..

- إنه سلام القوي يا عزيزي.. رد آخر .

- يا سلام سلّم ، قال أحدهم معلّقاً وهو يرقص ساخراً خلف الدورية التي انسحبت نحو الجنوب باتجاه مستعمرة نتساريم ..

قفل عائداً إلى غزة وقد سيطر الإحباط عليه ولم يعد قادراً على الخروج من مزاجه السيئ..

- ما بالك.. أنت تعرف أنهم هنا ، لم يخرجوا.. ولم يبرحوا غزة..

- اعتقدت بأنهم ابتعدوا ولن نراهم ثانية .

- وما الفرق ؟!

- " عين لا ترى ، قلب لا يحزن"..

كان صوت العربات العسكرية يبتعد شيئاً فشيئاً..

فيما زيد يهرول شمالاً كأنما يريد الابتعاد عن المشهد الذي حمله إلى عالم آخر..

كاد الشارع المحاذي للشاطئ يخلو من المارة إلا من بعض العائدين إلى بيوتهم ، فيما استمر إطلاق النار المتقطع ، استدار ، كأنما يتأكد من ابتعاده عن الداورية.. أو ابتعادها نحو الجنوب.. حدَّق في البحر.. لا بحر يشبه بحر غزة.. البحر صافٍ إلا من نجوم تنعكس على صفحته ، يتوسطها قمرٌ يتنقل على ظهر الموج ، تحمله كأنه مصباح منارة تناثرت حولها حبات لؤلؤ في تناسق وانسجام مدهش ،

...هذا البحر ، كان يعج بالقراصنة ذات يوم.. وما الفرق ؟!.. الاحتلال قرصنة.. والمحتلون قراصنة.. قال لنفسه رداً على تساؤله.. وأكمل.. رحل القراصنة ، فمتى يرحل المحتلون ؟..

...جيء بهم من كل بقاع الدنيا.. انظر إلى أشكالهم وألوانهم.. مثل شعير الشحّاد ، كل حبة من خابية..

- لكنهم نجحوا في احتلال الأرض بعد أن طردوا أصحابها .
- صحيح.. فقد أطلقوا كذبة.. صدقوها ومن ثم أقنعوا العالم بها..
- العالم يا صاحبي ، شبكة تتحكم المصالح بنسيجها .
- إنهم أذكياء.. لا شك أذكياء..

- ونحن أغبياء.. لا شك أغبياء..

فقد فشلنا في إدارة الصراع .

أفاق من شروده على صوت سيارة كادت أن تصدمه ، تنحى جانباً حين أدرك أنه ابتعد عن الرصيف ، وواصل سيره نحو الشمال..

أخذته الطريق إلى حي الرمال.. سالكاً الدروب نفسها التي اعتاد عليها منذ أن عاد إلى غزة.. اقترب من البناية ، أحسّ بانقباض شديد.. وقد اسودت الدنيا أمام عينيه .

مر وقت طويل قبل أن يلقي بجسده المنهك على سريره.. أو هكذا أحس.. لم يكن تعباً ، لكن مشهد الدورية الإسرائيلية لم يفارقه ، كأنما جاؤوا يحملون رسالة كان يعرفها.. لكنه أبعدها طول الوقت عن ناظريه.. وتحاشى التفكير فيها.. كان يعرف أنَّ الاحتلال باق ولم يرحل.. وأن حاله لن تكون أفضل من حاله قبل إبعاده.. لكنه لم ير في اتفاق أوسلو.. غير عودته إلى الوطن.. وجهد في إقناع نفسه.. بأن ذلك يكفي.. فهو لا يريد أكثر من ذلك.. في هذه المرحلة على الأقل.. حدّق في السقف.. كأنما يبحث عن شيء ما.. نهض مسرعاً ، حين سمع إطلاق نار.. توجه بحذر نحو النافذة المطلة على البحر ، شاهد عدداً من الزوارق تسرع نحو الشاطئ.. رغم العتمة التي كانت تتراجع أمام الفجر الزاحف على المدينة ، حدَّق في الأفق متتبعاً الضوء المنبعث من حلقات متفرقة يطلقها زورق كبير لم يتبين تفاصيله لكنه تراجع حين حجبت البنايات العالية الرؤية فلم يعد ير شيئاً غير مياه البحر تظهر تارة ثم لا تلبث أن تختفي وراء بنايات انتصبت على طول الشاطئ ، تنسحب العتمة عن صفحته ويتراجع انعكاس ضوء النجوم وقد بدأ الفجر يشق طريقه ، فيما بدأت تتضح معالم مدينة غزة ، ببناياتها غير المتناسقة لا ارتفاعاً ولا شكلاً...كأنها بنيت بشكل عشوائي..

عاد زيد إلى سريره ، حاول أن يغفو لكنه كلما أغمض عينيه أفاق مذعوراً ، فقد كان يرى السقف يهوي على رأسه ، والغرفة تضيق عليه ، يحاول أن يجد مخرجاً ، يركض نحو الباب ، يحاول فتحه فيرتد خائباً حين يجده مقفلاً ، يفيق من نومه وقد طار النعاس من عينيه ، فلم يجد بداً من الابتعاد عن سريره ، الوقت لا يزال باكراً ، وصوت المؤذن لا يزال يصدح في الأرجاء ، منبهاً ، "الصلاة خير من النوم".. أحس برغبة في فنجان قهوة فتوجه نحو المطبخ..

- أين أنت يا رجل ؟!.. بحثنا عنك طوال أمس ، فقد حضر أحدهم ، وأخبرنا أن عليك مراجعة دائرة الارتباط.. لأمر يتعلق بمغادرتك إلى رام الله .

- وأين دائرة الارتباط هذه ؟!

- علمت بأنها ليست بعيدة من مكتب الرئيس المعروف بـ المنتدى..

- حسن ، سأذهب إليهم في الصباح..

- قل لي.. هل أعجبتك غزة ؟.

- أنا أعرفها من قبل ، ولذلك لم يدهشني شيء.. وقد أحببت بحرها منذ كنت هنا أول مرة..

- لكن الفوضى عارمة هنا ،

- ربع قرن كفيلة بتدمير كل شيء..

- ها نحن عدنا ، فهل سنعيد ما دمره الاحتلال ؟!

- إذا رحل الاحتلال سنبني ما دمره ، لكنه لم يرحل بعد ، ولا أظنه سيفعل قريباً .

- أنت متشائم .

- لم أر ما يدفعني إلى التفاؤل..

- اسمع.. تعرفت إلى مطعم قريب ، يقصده طلاب جامعة الأزهر قبل التوجه إلى محاضراتهم.. ما رأيك لو دعوتك إليه.. حمص وفول و فلافل..

- وهل أعتبر ذلك دعوة للتفاؤل ؟!

- اعتبرها ما شئت.. المهم ، أن تقبل دعوتي..

- قبلت.. قبلت يا صديقي..

- إذن.. استعد..

5

ما زلت احتفظ في ذاكرتي بصورة صديق قديم ، وهو يسترسل في وصف مدينته.. مدينتنا مثل امرأة تلف جسدها بعباءة ، حتى لا يظهر منه إلا بعض وجهها ، حيث يتشابه شكل النساء من بعيد ، فإذا ما اقتربت منها ، ونظرت إليها لا يغريك شيء منها ، إذ إن العباءة خبأت وأخفت كل أسرارها.. لكنهم قالوا قديماً.. المخفي أعظم.. وقد صدقوا في قولهم ، فالمرأة في مدينتنا لا تدرك جمالها إلا إذا نزعت العباءة عنها ، ومدينتنا لا يمكنك إدراك جمالها إلا إذا دخلت إليها ، وتفقدت تفاصيلها ، لا يغريك شيء فيها ، لكن السحر يكمن في أزقتها و حاراتها تماماً مثل نسائها ، لا تدرك جمالهن إلا إذا انكشف المستور منهن .

كان صديقي يتحدث عن مدينة غزة ، مأخوذاً بسحرها وجمالها ، وحين سمعته في ذلك اليوم ، اعتقدت أنه يهذي ، ولم أصدق هذيانه.. لكني منذ أن رأيت غزة ، أول مرة.. تزداد معرفتي بالمدينة يوماً بعد آخر ، وأرى المستور منها.. أدرك أنَّ صديقي كان محقاً في حديثه عن غزة وما خفي من أسرارها..

انعطفت السيارة يميناً حيث مركز رشاد الشوا ثم المجلس التشريعي.. فالجندي المجهول ،..واصل السائق طريقه عبر شارع عمر المختار الذي يخترق غزة من شرقها إلى غربها ، حيث يلتقي البحر ، ويمتد شمالاً وجنوباً على طول الشاطئ.

بدا المشهد هنا مختلفاً ، حيث اختفى جنود الاحتلال ، وحل الفلسطينيون محلهم وانتشروا حول مبنى السراي الحكومي وحتى سوق فراس .

- هنا سينما سامر.. قال السائق مشيراً إلى يساره وأكمل..

- وهنا سوق فراس ، وهناك على التلة دار البلدية.. وأمامنا ساحة فلسطين..

جال زيد ببصره أرجاء الساحة ، كأنما يبحث عن جنود الاحتلال ، وحين لم يجد أحداً همَّ بسؤال السائق لكن هذا سبقه ، وكأنه قرأ ما دار بخلده..

- هنا دارت معارك عنيفة بين الفدائيين وجنود الاحتلال ، حيث سقط العديد من الشهداء قبل أن يوقعوا الكثير من الإصابات في صفوف قوات الاحتلال..

- يجب أن نغير اسمها إلى ساحة الشهداء.. عقَّبَ أحدهم..

واصل السائق حديثه ، فيما كان الجميع مشدودين إليه ، وهو يذكر الأماكن متوقفاً عند بعضها ، مستغرقاً في وصف بعض الوقائع..

- هنا حارة الزيتون.. وذاك حمام الوزير ، حيث كانت تعيش عائلة خليل الوزير ، أبو جهاد.. أنا أعرفهم جيداً ، وقد إلتقيتهم مرات عديدة قبل أن يرحلوا إلى مدينة الرملة..

قال السائق ملتفتاً إلى الركاب.. كأنما يتأكد من وصول المعلومة إليهم جميعاً.. فيما واصل الجميع تحديقهم في الشارع المزدحم بالمارة وبالباعة أمام أكشاك ممتدة على طول الرصيف يساراً ويميناً ،

خيم الصمت على الركاب.. قبل أن يفيق زيد من شروده على صوت السائق يبرر عدم انعطافه يساراً في شارع صلاح الدين بعد خروجه من شارع عمر المختار ، كأنما خشي أن يسأله أحد الركاب عن ذلك !

- سوف نمر عبر الشجاعية في طريقنا إلى الشارع الالتفافي المؤدي إلى معبر إيرز ، لتجنب الازدحام وتزاحم السيارات في هذه الأوقات..

- أنت السائق وأنت أدرى بشعاب غزة ...رد زيد على السائق فيما ابتسم الجميع دون أن يعقبّوا بشيء...

كانت نقطة العبور المسماة إيرز على اسم القائد الإسرائيلي الذي دخل غزة عام 1967 من الحدود الشمالية للقطاع تبعد كيلومترات معدودة ، والطريق إليها يمر عبر سياج مكهرب أقامه الإسرائيليون على طول الحدود مع إسرائيل.. وشقوا طريقاً بجانب السياج لاستخدام دوريات حرس الحدود ،

- يمشطون الطريق الترابي هذا عصر كل يوم ، ويتفقدونه صباح اليوم التالي للتأكد من أن أحداً لم يقطعه لعبور السياج إلى الجانب الإسرائيلي.. قال السائق ذلك ، فيما كان الركاب يتابعون حديثه ملتفتين إلى السياج.. ثم تابع..

- هناك في البعيد بلدة بيت لاهيا وعلى يسارنا بيت حانون ثم معبر إيرز .

كان عليه الانتظار مع زملائه في قاعة صغيرة ، التزاماً بتعليمات مرافقهم الذي انكبّ على انجاز الأوراق اللازمة لعبورهم الحدود ، في طريقهم إلى رام الله.. لم يمضِ طويل وقت حتى استدعاهم واحداً بعد الآخر للمثول أمام أحد الجنود ، الذي راح يدقق في أوراق كل منهم ، دسَّ أوراقه في حقيبة يده ، وانطلق خارجاً وقد أحس بضغطه يرتفع ، ودقات قلبه تتسارع..

أعاده المشهد إلى اثنتي عشرة سنة مضت على خروجه من السجن ، ربما كان الفضاء هنا أكثر رحابة لكنَّه أحس به يضيق عليه حتى كاد يختنق ، تماماً

مثلما كان يحدث معه كلما استدعي من زنزانته في سجن رام الله إلى غرفة التحقيق ، كأنهم السجانون الذين عرفهم وحفظ أشكالهم ونبرات أصواتهم ، وربما كان لبعضهم ذات الأسماء التي لازمته طوال تنقله من مكان لآخر طوال سنوات الأبعاد ، التي قضاها متنقلاً من بلد إلى آخر ، بعيداً عن رام الله.. وبعيداً عن أهله وأصدقائه..

لم يكن أمامه غير مغادرة المكان لعله يغادر المشهد ، أو يغادره ، لكنه توقف حين سمع المرافق يناديه ، طالباً من الجميع الانتظار قليلاً وقد تقدم نحو سيارة كانت تقف في الجوار ، تبادل الحديث مع سائقها قبل أن يشير لزيد ومن معه بالتقدم نحوها..

- سوف نفترق هنا ، وستواصلون إلى رام الله برفقة هذا الرجل الطيب ،،،

أشار بيده نحو السائق ، مادأً يده مصافحاً.. وقفل عائداً من حيث أتى.. فيما توجه زيد وزملاؤه إلى سيارة الأجرة منطلقين إلى رام الله..

لحظات ، كانت السيارة تغادر المكان ، فيما جلس زيد في مقعده وقد ألقى رأسه على باطن يده ، وأطلق العنان لعينيه تغادرانه مع الأرض المنبسطة حتى الأفق.. الأرض ذاتها ، والمشهد لم يتغير منذ أن كان هنا آخر مرة قبل اثنتي عشرة سنة ، يوم جاء غزة زائراً ، شجرات الجميز لا تزال على حالها ، متناثرة حول الطريق ، كأنها تُذّكر ساكني مستعمرة "ياد مردخاي" بالذين كانوا هنا ذات يوم يتجمعون من القرى المجاورة من أسدود والمجدل ويبنه شمالاً ، وحتى بئر السبع التي تتوسط صحراء النقب جنوباً ، حاملين معهم بضائع صنعوها بأيديهم ، أو منتوجات زرعوها في حقولهم ، أو مواشي وخيول وجِمال كانوا يفاخرون بها ، يتقاطر النَّاس هنا من كل حدب وفج ، يتبادلون البضائع ، يشترون ويبيعون ، كان السوق يعج بالحركة نهار الخميس من كل

أسبوع ، جال ببصره كأنما يبحث عنهم ، لكن المشهد تغير ، ولم يعد هناك من أثر يدل على سوق الخميس ، سوى هذه الجميزات وبعض شجيرات الصبَّار التي قاومت كل العوامل الطبيعية وغير الطبيعية ، وكل محاولات اقتلاعها ومحو آثار أصحاب البلاد الأصليين...حدَّق في الجميزات ، وابتسم.. وقد أحسَّ بارتياح للشواهد الباقية..

تستغرق الطريق من معبر بيت حانون إلى رام الله قرابة الساعة ونصف ، يعرفها ، ويحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب ، جاءها أول مرة برفقة صديق يعرف الطريق جيداً ، ويعرف القرى المحيطة بالطريق وكذلك المستعمرات التي أقيمت قبل النكبة وبعدها ، كأنما يمتحن ذاكرته.. كان يسهب في الحديث عن الأمكنة وتاريخها ، هناك قرية عاقر ، حيث يقع أهم مطار عسكري ، ورثه الإسرائيليون عن الجيش البريطاني ، وهنا قرية المسمية ، وهذه قرية السوافير ، وهذه مدرسة القرية ، أما تلك النخلة فهي ما تبقى من قرية جولس ، وهذا الحرش ما تبقى من قرية قسنطينة.. كان زيد يهمس في داخله ، كأنما يستعيد ما كان يصفه له صديقه أبو خالد ، في كل مرة رافقه إلى غزة..

أطلت جبال القدس من بعيد ، وقد اكتست بالأخضر.. إنه يعرفها جيداً ، فها هي بيت محسير تطل على سهل اللد ودير محيس وخلدة.. من هناك كان يرى يافا وقد أحاطت بها تل أبيب بعمائرها العالية فيما بقيت يافا على حالها منذ أن حاصرتها عصابات اليهود عام 1948 ، وطردوا أهلها.. استوقفته لافتة انتصبت على يمين الطريق تشير إلى قرية جديدة "واحة السلام" أقامها راهب حالم على أراضٍ بعضها لدير اللطرون والبعض الآخر لقرية بيت محسير.. أرض "الحرايق".. هكذا كان يسميها أهل بيت محسير قبل طردهم منها.. "واحة السلام" ، فكرة مجنونة ، لراهب كان يحلم بإقامة وطن لجميع الأديان ، مسلمين ومسيحيين ويهود.. سكنها عدد من الشيوعيين الذين لا يؤمنون بأي دين أصلاً ، وبعض اليساريين الذين يعرفهم جيداً ، وقد

زارهم حين كان يتردد على القرية قبل إبعاده.. حدَّق في القرية كأنما يحصي بيوتها.. هناك بعض البيوت الجديدة ، لكنها قرية وقد بدأت معالمها تتضح..

الطريق إلى اللطرون لا تزال هي ذاتها التي عرفها ، وان كانت الأشغال لتوسيعها جارية ، ويبدو أنَّ الطريق من اللطرون إلى غزة سوف تشهد توسيعات لم تشهدها من قبل..

استدار السائق يساراً بمحاذاة سور دير اللطرون وتقدَّم نحو آخر معسكر كان للجيش الأردني حتى الخامس من حزيران ، هنا رفع الإسرائيليون دبابة على نصب مرتفع ، ووضعوا في أسفل النصب حجارة نقشوا عليها أسماء جنودهم الذين سقطوا في معركة اللطرون ، حدَّق زيد بالمكان ، لم يبق سوى الدير الفرنسي وما لحق به من مبانٍ ومزارع العنب التابعة له ، والتي يصنع الرهبان منها نبيذ اللطرون المعروف.. هدَّم الإسرائيليون قرى عمراس ويالو وبيت نوبا ، طردوا أهلها وصادروا أراضيهم وأقاموا عليها حديقة أسموها حديقة كندا.. أما الدير فلم يمسسه أحد ، وأقاموا في المنطقة ثلاث مستعمرات..

أحس بحلقه وقد تيبّس ، حاول بلع ريقه فوجده جافاً في حلقه ، طلب من السائق ماء فاعتذر لكنه أخبره بأنَّ عين الماء قريبة وسوف يتوقف هناك..

أحس بغصّة ، فيما أبطأ السائق قرب منعطف في أسفل التلة التي تناثرت فيها قبور معظمها قديم ، ربما كان عمر بعضها ألف عام وأكثر.. يوم أصاب مرض الطاعون جيش معاذ بن جبل وقضى عليه وعلى جيشه ودفن معظمهم هنا .

درج أهل عمواس على دفن موتاهم حول قبور معاذ وجيشه ، لم يقو زيد على الترجّل من السيارة...وطلب من أحد زملائه أن يملأ له زجاجة ، شرب منها على مضض ، أغمض عينيه لا يريد أن يرى المشهد .. لكنه استدار يساراً ، وقد تذكر أنَّ بيت عمته كان هنا ، إنه يذكره جيداً فقد زاره مرات عدة

قبل احتلال عام 1967 ، وقبل غزو الإسرائيليين وتدميرهم للقرية ، طلب من السائق أن يواصل سيره ، لم يتردد السائق وقد أحسَّ بحال زيد ، لكنه عَقَّبَ قائلاً :

- لقد اقتلعوا أشجار الزيتون « الروميّة» الكبيرة وأخذوها ليزينوا شوارعهم وساحاتهم ، وزرعوا بدلاً عنها الأشجار الحرجية ، انظر ماذا فعلوا ؟ انظر.. فلا شيء أبلغ من ذلك للتعبير عمَّا جرى..

- لكنَّ السلام آتٍ.. قال أحدهم .

- المصيبة أنكم تصدّقون ذلك.. ردّ السائق وتابع..

لقد جاءوا بكم إلى هنا ليرتاحوا منكم ، وليضعوكم تحت رحمتهم...أنتم الآن مثلنا حالكم مثل حالنا.. وربما أقل.. هذا احتلال ولن يتنازلوا عن هذه الأرض بسهولة.. اسألونا عنهم.. فنحن نعرفهم أكثر منكم .

- والاتفاقيات التي وقعنَّاها معهم ؟! سأل آخر

نظر السائق بالمرآة كأنما يبحث عن السائل..

- الطيبّون والسذّج فقط هم الذين يلتزمون بتوقيعهم أما هؤلاء فلا عهود لهم ، وهم ليسوا طيبين وليسوا سذّجاً.

حدَّق زيد بالركاب ، وراح ينقّل نظره بينهم ، فيما دار نقاش تخلله صياح كاد ينتهي بعراك ، حين جنح أحدهم بحديثه إلى حد اتهام من وقّع بالخيانة أو على الأقل بالسذاجة والجهل..

أشار زيد بيده طالباً من الجميع الهدوء .

- اسمعوا ، أنا شخصياً لا أرى فيما تم من اتفاق غير وجودنا هنا.. بالنسبة لي هذا يكفيني ولست سائلاً عن أي شيء آخر .

خيَّم الصمت ، فيما انطلق السائق نحو مفترق بيت سيرا ، آخر قرية حدودية في الضفة الغربية، حدَّق زيد في القرى المحيطة يساراً ويميناً ، صفا ، بيت عور التحتا ثم الفوقا ، الطيرة ، ومن بعيد تبدو قطنَّة وبدّو تحيط بها المستعمرات من كل الجهات ، انعطف السائق يساراً نحو بيتونيا المحاذية لرام الله .

حدَّق زيد في معسكر عوفر ، في الخيام و البركسات المنتشرة في أرجائه .

قبل اثنتي عشرة سنة كان معسكراً فحسب..

أما اليوم فقد تحول إلى سجن كبير يعج بزبائنه من الشبان ، توقف السائق عند مدخله طالباً أوراقهم ، جمعها وانتظر أحد الجنود الذي استعد بسلاحه ، طالباً من الركاب الترجل من السيارة والوقوف بعيداً عنها..

كانت الشمس تزحف بعيداً ، تمد خيوطها قبل أن يغيبّها الأفق ، حمراء بلون اللهب .

أخذ الجندي الوثائق ، فيما اصطف الركّاب جانباً ، ملتزمين بأوامر الجندي ، الذي تقدم نحو السيارة وراح يفتّشها تفتيشاً دقيقاً ، كأنه واثق من أنَّ شيئاً ما بين المقاعد أو في مكان ما في خبايا السيارة ، ملتفتاً بين الحين والآخر نحو الركاب ، كأنما يفحص ردود أفعالهم ، اقترب أحد الجنود من السائق وسأله بلغة عربية ركيكة :-

- ما في سلاح ؟

- لا.. لا.. ما في سلاح ، رد السائق بانكسار ظاهر..

اقترب الجندي من الركاب ، يسأل عن أسمائهم ويعيد لكلٍ منهم أوراقه ، كان المشهد كاريكتورياً ، كأنه مسرحية تزخر بالكوميديا السوداء ، أحس وهو يحدّق في تفاصيلها برغبة في التقيؤ تارة ، وبالبكاء تارة أخرى .

أخذ أوراقه وأسرع نحو السيارة يلعن أوسلو وكل من شارك فيها ،،

استغرق وقوفهم عند الحاجز قرابة نصف ساعة قبل أن يشير الجندي بيده إيذاناً بانتهاء التفتيش مفتعلاً التجهمّ والعصبية ، واصل السائق سفره بعد أن اطمأن إلى ركابه وسط صمت الجميع ، فيما بدت على السائق ابتسامة خبيثة ، نظر في المرآة إلى زيد كأنما يقول له :

- هذا أول الغيث يا أهل أوسلو.. ألم أقل لك.. ؟!
- أبطأ السائق مبدياً امتعاضه من كثرة الحواجز .
- ما هذا ؟! سأل أحد الركاب وقد رأى طابوراً من السيارات .
- إنه حاجز فلسطيني..

نحن نهبط الآن أرض دولة أوسلو العتيدة ، شدوا الأحزمة ، اكتموا أنفاسكم ، أعني توقفوا عن التدخين ، استعيذوا بالله ، وصلّوا على النبي..

قال السائق مستهزئاً ، وهو يأخذ مكانه في صف السيارات الطويل..

- ألا تكفينا الحواجز الإسرائيلية ؟!.. سأل أحد الركاب مستنكراً..

لا تزال بلدة بيتونيا على حالها ، الذي عرفه قبل اثنتي عشرة سنة ، بيوت متناثرة على اليمين ، فيما يسمى»بالوع بيتونيا» ، وهي أرض منخفضة ، تتجمع فيها المياه شتاءً ، وتجف صيفاً ، فيزرعها أصحابها بما تيسر من المقاثي»

الفقوس والخيار والبندورة والباميا والبطيخ والشمام.. الخ..

مدَّ بصره نحو مقدمة الصف محاولاً استيضاح ما يجري ، لكن عشرات السيارات المتوقفة في الطابور الممتد لعشرات الأمتار أمام الحاجز.. وازدحام المتطفلين الذين لم يعتادوا بعد على مشهد كهذا ، حجب عنه رؤية ما يجري..

ترجّل من السيارة بعد أن لم يستطع مقاومة فضوله وتقدم نحو مقدمة الصف لعله يرى شيئاً ، كان المشهد غريباً ويستحق الاهتمام.. فلسطينيون بأسلحتهم وزيّهم الأزرق ، فيما برز النسر الفلسطيني ، الشعار الفلسطيني على طواقي الشرطة الفلسطينية.. وقد تجمهر المارة ، وأطلت النسوة من نوافذ البيوت المجاورة وقد بدا على الجميع ذهولهم ،،،

حدَّق زيد في المشهد وحين لم يطق ذلك عاد أدراجه إلى السيارة في آخر الصف ، ولا تزال صورة الشرطة الفلسطينية وهم يدققون في أوراق العابرين إلى رام الله.. ويسألونهم عن أسلحة أو ممنوعات ، حاول حصرها وتحديدها في ذهنه فلم يستطع..

لا يختلف المشهد هنا عن مشهد حواجز الاحتلال ، إلا في شكل الجنود ،،،

- إنهم يقلّدونهم.. قال محدثاً نفسه وقفل عائداً مبتعداً..

لم يستغرق عبورهم وقتاً طويلاً ، فيما واصل زيد شروده مأخوذاً بما رأى ، هذه بيتونيا ، وتلك رام الله ، كأنها مدينة واحدة رام الله تحيط بها مدينة البيرة شرقاً ، وبيتونيا غرباً ، لم يتغير المشهد كثيراً ، بعض البنايات الجديدة هنا وهناك ، عدا ذلك كل شيء على حاله منذ غادرها ، المنطقة الصناعية ، بلدية رام الله ومنتزهها ، مطعم بلازا ثم البردوني ، هنا كان مطعم نعّوم قبل أن يقوم مركز تجاري مكانه ، وهذا دوّار المغتربين تتوسطه مسلة تعلوها ساعة معطلة منذ احتلال المدينة عام 1967 ، حدَّق في الوجوه وباعة الأرصفة

، ذات الوجوه التي عرفها ، وذات الأماكن التي لا تزال محفورة في ذاكرته لم تفارقه أبداً.. وذات الباعة..

ها أنت في رام الله يا زيد ، المدينة التي عشقتها ، ولا تزال ، حتى يوم تقطعت بك السبل ، لازمك الحلم بلقائها ولم يغادرك طوال إبعادك.. أغمض عينيه وهو يطل على ميدان المنارة وقد استوقفه بيت شعر للجواهري حين جاء دمشق بعد غياب طويل :

آه "دمشق" ، نظرت إليك

كمن يتشهى وجه من عشقا

أفاق من شروده على صوت السائق يعلن وصولهم..

- الحمد لله على سلامتكم ..
- هل يمكنك أن تأخذني إلى عين مصباح؟.. سأل زيد السائق فيما نزل الركاب جميعاً ،،،

تبعهم زيد ، صافحهم مودعاً وقد أبلغه السائق موافقته على ذلك وموافقة زيد على الأجرة التي طلبها..

لا يزال مبنى المحكمة على حاله ، محاطاً بمحلات بيع الدجاج ، والطيور على أنواعها ، أعاده مشهد الأرانب والحمام في أقفاصها إلى سنوات خلت ، كان والده يحب "زغاليل الحمام" حيث أتقنت أم زيد التعامل معها ، صينية بالفرن ، أيام الجمعة ، حتى أصبح الجميع ينتظرون يوم الجمعة بفارغ الصبر

،

مبنى وكالة الغوث على حاله ، دائرة الزراعة على اليمين ثم مخيم عين مصباح... عدد من البيوت المتواضعة والعشوائية، على جانب العين ، فيما واصل السائق طريقه غرباً ، بدأت دقات قلبه تتسارع وقد بدت من بعيد البيوت التي عرفها ، وعاش بجوارها ، أشار زيد إلى السائق بالتوقف، مرت لحظات قبل أن يستجمع قواه ويترجّل من السيارة، لم يدر كيف حمل حقيبته الصغيرة ليجد نفسه في مواجهة التلال الممتدة نحو الأفق في هبوط متواصل ، تناثرت قرى عدة في ثناياه ، واستقر بعضها على سفوحها، فيما بدت من بعيد مستعمرات بدت أكبر مما كانت عليه قبل إبعاده.. فقد كان يراها صباح مساء ، تطل على رام الله وتلتف حولها ، كأنها أورام سرطانية قبيحة ، أو أفاعٍ تتربص بطرائدها ، حدَّق بالمشهد مأخوذاً بما يرى ، كأنما يراها لأول مرّة..

..أفاق من شروده على صوت يشده من كتفه ، ويعانقه ، لحظات ، هبط الدرج مسرعاً وقد وقع نظره على سالم صاعداً ، فيما كانت شقيقته ميسون تشدّه وهو مأخوذ بابنه سالم الذي اختلطت المشاعر على وجهه ، كأنما لا يصدق ما يرى... عانق شقيقته التي أجهشت بالبكاء... فيما كان سالم يلقي بنفسه في حضن والده ، بينما أجهش زيد بالبكاء وهو يعانق ابنه ويلف ذراعيه حوله ويشده إليه كأنما يخشى من فقده ثانية .

وصل زيد البيت بعد اثنتي عشرة سنة ، كأنما غادره بالأمس ، كل شيء في مكانه ، لا جديد في البيت ، كل شيء على حاله ، الستائر.. المقاعد ، السجادة القديمة ذاتها التي اشتراها من بائع خليلي متجول ، لا يزال يذكر تضاريس وجهه حين سأله عن بلده... فأجابه :

- من قرية بني نعيم ، إلى الشرق من الخليل ، حيث كان الهاربون من أهل الخليل ، يلجأون إليها ، في طريقهم

إلى المدن والبلدات الأردنية، على الشاطئ الشرقي للبحر الميت وخصوصاً مدينة الكرك التاريخية ، التي شهدت ازدهاراً ونماءً ، إبان الغزو الصليبي ثم الدولة الأيوبية بعد ذلك ، فاختلطت أعراق مختلفة شكلت نسيجاً فريداً للمجتمع الكركي .

..لم يفارق سالم أباه ، كأنما استعاد ذاكرته وعادت إليه صورة والده الذي افتقده سنوات ، فيما تقاطر الجيران للسلام على زيد وتهنئته بالعودة حتى ضاقت بهم أروقة البيت وممراته فانتشروا خارجه ، تقدمت إحدى النساء من زيد ، عانقته بحرارة وقد حبست دموعها ، لكنها لم تستطع مواصلة حبسها.. فانفجرت باكية..

- شفا الله رباب وأعانها على ما أصابها ، نظر زيد إلى أم عيسى وقد فطن إلى غياب رباب عن المشهد فيما تعلّق سالم بأبيه فأنساه ابنه ما دونه .

- أين رباب ، ماذا أصابها ؟! ..أين أمك يا سالم ؟!

- أمي في المستشفى .

- ما بها ؟!

- أمي مريضة..

- لماذا لم يخبرني أحد ، لماذا لم تخبروني ؟!

- إشتاط غضباً ، واستدار ينظر حوله كأنما يبحث عن أحد يحمل عنه وزر ما سمع ، فيما اقترب منه زياد محاولاً مواساته ودعوته إلى الهدوء ، ..لكن زيداً انفجر بأخيه..

- كان عليك أن تتصل بي ، لماذا لم تفعل ؟!

- لا داعي لذلك الآن ، لا تلومني.. كان وضعها سليماً ، وصحتها في أحسن حال ، فجأة تغيّر كل شيء ، وأصبح الأمر خارج السيطرة ، حين أبلغنا الأطباء بانتشار السرطان في أنحاء جسدها ، لم نترك وسيلة أو جهة إلا ولجأنا إليها لمساعدتنا ، استغرقنا الأمر أكثر من شهر لإدخالها مستشفى هداسا ، وبعد يومين أخبرني الطبيب بأمرها ، وما آلت إليه .

- تأخرتم كثيراً ، لم يترك المرض لنا ما نفعله ،

- اتصلت بكم من غزة ، لماذا لم تخبروني ؟!

- وماذا كنت ستفعل ؟!

- كنت عجلت حضوري إلى رام الله..

- وماذا ستفعل ، هل ستقدم أكثر مما قدمنا ؟!

- ما الذي جرى ، اتصلت بها ، ولم تخبرني بحالها ، ما الذي جرى ؟!

- كان ذلك قبل شهر ، وقد ساءت حالتها خلال ذلك ، وبشكل سريع ، لم يُقَصر أحد منَّا في إنقاذها حتى لو كنت هنا ، لم يكن بمقدورك أن تفعل أكثر مما فعلنا .

- لماذا لم تخبروني ؟!

- وماذا كنت ستفعل ، غير الألم والحسرة ؟!

- وأين والدتك ؟

- إنها هناك ، في المستشفى ، لم تفارق رباب .

إغرورقت عينا زيد ، اقترب من زياد كأنما يعتذر منه ، وراح يبكي فيما اقترب سالم من أبيه يشده إليه وقد أجهش بالبكاء..

- بابا... غداً سنذهب إلى المستشفى معاً... قال سالم وهو يشد على يد والده .

أحسَّ زيد بالغرفة تنقلب على رأسه بالكاد أمسك بابنه ، وألقى بجسده على الأريكة القريبة ، وهو يشده إليه ويخفي دموعه التي لم يستطع حبسها ومنعها من الانفلات..

- تماسك يا زيد...

- أريد أن أذهب إليها..

- لا سبيل لذلك من دون تصريح ، والأمر ليس بهذه السهولة..

- لن أنتظر تصريحاً للذهاب إلى هداسا..

- وماذا ستفعل ؟!

- سأتدبر أمري ، لا تخشَ عليَّ..

قال زياد محاولاً طمأنة زيد...

لكن زيداً كان شارد الذهن.. مشغولاً بأمر آخر.. فآثر الصمت.

لم تَعُد الطريق إلى القدس سالكة كما كانت قبل إبعاده ، لكنه يعرف تفاصيلها أكثر من جنود الاحتلال ، ويعرف كيف يصل إلى هدفه ، بعيداً عن عيون دوريات حرس الحدود .

أخذ زيد قراره ، لكنه لم يخبر أحداً بذلك ، نظر إلى أخيه وقال كأنما أراد أن يُبعد الشبهة عمّا دار في ذهنه..

- حسن.. سوف نرى.. الصباح رباح..

مدّ يده إلى سالم ودخل غرفة نومه ، وسط صمت الجميع واستسلامهم لرغبته ، وإدراكهم لحاله..

ألقى بجسده على السرير ، لكن سالم لم يدع له مجالاً للاختلاء بنفسه ، تسلل نحوه وقد لف ذراعه حول والده ، كأنما أحس بالغضب في نبض عروق جسد أبيه الذي حاول أن يحبس أنفاسه ، ويمنع دموعه من الانفلات ، فأخفى وجهه بعيداً عن عيني ابنه ، ضمه إليه وأطلق العنان لدموعه ،

غلبه النعاس ، فأطبق عينيه ، لكنه لم ينم طويلاً ، تقلب في سريره ، فآثر الهرب من كوابيس لاحقته كلما استغرق في نومه ، غادر سريره إلى المطبخ بحث عن دلّة القهوة ، شرب قهوته في المطبخ بعيداً عن غرف نوم الآخرين ، خشية انكشاف أمره وتعطيل قراره بالتسلل إلى القدس ، وزيارة رباب في مستشفى هداسا ، شرب قهوته وعاد إلى غرفته حيث كان سالم مستغرقاً في نومه ، وقد أطلق العنان لأطرافه تحتل جنبات السرير فلم يترك متسعاً لنوم أحد ، هكذا كان يفعلها منذ صغره.. النوم إلى جانبه مغامرة .

وقف محدّقاً ، ممعناً في جسده الذي تحلل من ضوابط النوم ، ابتسم حين

تذكرّ أن عليه إيقاظه وقد قرر اصطحابه إلى المستشفى ، ساعده في ارتداء ملابسه وهو يحثه ويستعجله قبل طلوع النهار .

الطريق إلى القدس ، تمر عبر مخيم قلنديا حيث الحاجز الإسرائيلي يمنع العابرين إلى المدينة وضواحيها من الاقتراب والعبور دون تصاريح تسمح لهم بمواصلة سفرهم بعد خضوعهم لتفتيش دقيق ، ومحض أوراقهم الثبوتية .

أشار بيده لسيارة أجرة متوجهة إلى الحاجز .

- هل يمكنك أخذي إلى الحاجز ؟

أشار له السائق بالصعود.. فيما راح زيد يوصي ابنه بالتزام الصمت وعدم الإجابة على أسئلة العساكر على الحاجز وعدم الابتعاد عنه..

- أنا أعرف الطريق القدس ، لقد تسللت إليها عدة مرات،

- هل تريد العبور إلى القدس ؟

- سأحاول ذلك .

سأل السائق زيداً ، وأجابه متحفظاً..

نظر زيد إلى السائق كأنما أدرك أنَّ لديه ما يضيفه ، فيما صَمَت السائق كأنما انتظر مبادرة زيد بالحديث.. انتظر كل منهما الآخر ، لحظات من الصمت لم تطل ، فقد أدرك السائق أنهما يقتربان من حاجز قلنديا.. فقرر الخروج عن صمته..

- أتريد الوصول إلى القدس ؟

- لم يفاجأ زيد بالسؤال ، لكنه قرر التحفظ بالإجابة ،

- نعم ، أريد الوصول إلى القدس ، زوجتي في مستشفى هداسا في حالة الخطر .

- وكيف ستصل ؟ لن تعبر دون تصريح .

- سأحاول ، لن أخسر شيئاً .

- اسمع مني ، لا تعرض نفسك لما لا تحب ، الجنود على الحاجز يتفننون في إهانة النَّاس وإيذائهم فلا تحاول .

- هل تريدني أن أعود ؟!

- لا ، لا أريدك أن تعود ، هناك طرق أُخرى للعبور..

- وما هي ؟!

- بخمسين دولار يمكنك الوصول إلى هداسا .

- خمسون دولار ؟!

- نعم ، خمسون دولاراً .

- كيف ، وأي الطرق ستسلك ؟

- هذا ليس شأنك ، تريد عنباً أم.. وقبل أن يكمل قاطعه زيد.

- لا بأس لا بأس ، أردت أن أتأكد فقط ، أنا موافق..

- سوف نذهب إلى بلدة عناتا ، حيث تأخذك سيارة أخرى تنقلك إلى هداسا .

- حسن ، المهم أن تكون واثقاً من سائقها .

- توكل على الله ، إنشاء الله سوف تصل إلى هداسا سالماً..

نقده الخمسين دولاراً ، فيما هبط السائق يساراً نحو شارع يؤدي إلى الكسّارات ومن هناك صعد إلى الشارع الرئيس وواصل سيره شرقاً نحو عناتا ، استوقفهم حاجز عسكري عند مدخل قرية جبع..

- إلى أين ؟

سأل الجندي السائق مادّاً يده لتفحص وثائقه ، فيما نظر إلى زيد وسالم ، لحظات ، أشار بيده للسائق بمواصلة السفر .

هبط الطريق الواصلة بين جبع وقرية حزما التي أطل طرفها الشمالي على رأس تلّة تهبط من حدود بيت حنينا التي طوّقتها مستعمرات امتدت ولا تزال كالأفعى حول القدس وشعفاط وبيت حنينا والرام ، على تلال تنحدر شرقاً نحو غور الأردن ، حاصرتهم وحالت دون تمددهم .

انعطف السائق يساراً متجنباً الاقتراب من حاجز حزما ، سالكاً طريق أريحا ، لكن حاجزاً آخر على مدخل عناتا استوقفهم ، دقق في أوراقهم قبل أن يشير الجندي بيده سامحاً لهم بالعبور إلى عناتا..

انطلق السائق بسيارته نحو بلدة شعفاط ، عبر المخيم الذي ازدحم بأهالي حي المغاربة بعد أن رحّلهم الإسرائيليون إليه من الحي الذي تحول إلى ساحة كبيرة ملاصقة لحائط المسجد الأقصى الغربي وحوّله اليهود إلى حائط المبكى يقيمون فيه صلاتهم وشعائرهم أيام السبت بعد أن هدموا مئات المنازل والبيوت وأجبروا أصحابها على مغادرة المدينة إلى شمالها حيث مخيم شعفاط بعد احتلال المدينة في العام 1967 .

قبل أن يصل إلى المخيم انعطف السائق عبر زقاق ضيق ، حيث كانت سيارة صغيرة تحمل لوحة صفراء إسرائيلية ، متوقفة وسط الزقاق..

- هذه السيارة التي ستقلكما إلى هداسا ، ترجّل زيد وابنه سالم وانتقلا إلى السيارة الأخرى ، نقده خمسين دولاراً..

لحظات انطلقت السيارة عبر الزقاق ، نحو الشارع الرئيس المؤدّي إلى شعفاط .

- هناك سيارة حرس الحدود ، تقف قريباً من المدخل الشرقي بحثاً عن متسللين إلى القدس.

- الله يستر .

- توكل على الله .

- انطلق السائق نحو الشارع الرئيس ، نظر يساراً ويميناً ، توقف قبل أن يعبر الشارع .

- لا خوف علينا ، دخلناها سالمين ، قال السائق كأنما يحدّث نفسه ويطمئنها .

- لن أطمئن حتى نصل مستشفى هداسا .

واصل السائق طريقه عبر الشارع الجديد الذي يربط مستعمرة راموت التي أقيمت على أراضي لفتا وشعفاط وبيت إكسا وبيت حنينا .

هبط السائق بسيارته باتجاه مفرق راموت صعوداً إلى الشارع الرئيس المؤدي إلى يافا ، وتل أبيب .

- هذه الشوارع جديدة ، لم تكن منذ عشر سنوات خلت .

نظر السائق إلى زيد كأنما استغرب ملاحظته ، وقبل أن يسأل ، بادره زيد .

- أنا من العائدين ، كنت هنا قبل اثنتي عشرة سنة .

- أه فهمت.. نعم إنها جديدة ، قلبوا القدس رأساً على عقب ، نحن أبناء القدس لم نعد نعرفها.. إنها قدس جديدة ، لا علاقة لها بمدينتنا ، لقد غيّروا معالمها تماماً .

كانت السيارة تواصل صعودها نحو الشارع الرئيس المؤدي إلى دير ياسين يميناً وعين كارم يساراً ، الأولى هرب من تبقى من أهلها بعد المجزرة التي ارتكبتها عصابات الهاغاناه وراح ضحيتها أكثر من مئة من الرجال والنساء والأطفال ، أرعبوا القرى القريبة ، فهرب أهالي القرى المجاورة خوفاً من الإرهاب الصهيوني.. وبقيت بيوتهم على حالها حتى اليوم..

- تلك هداسا عين كارم.. قال السائق ، كأنما أراد أن يطمئن زيداً .

بدت دقات قلب زيد تتسارع وتعلو ، لحظات أبطأ السائق ثم توقف قبل البوابة الرئيسة مشيراً إلى سالم بالنزول من السيارة..

- اذهب إلى تلك البوابة ، واسأل الاستعلامات عن القسم الذي تريده ، ولا حاجة لذهابي أبعد من ذلك .

أسرع سالم نحو طرف البناية الرئيسة ، وتوجه نحو الاستعلامات .

- الطابق الرابع غرفة رقم 402 ، قالت العاملة وهي تشير إلى المصعد القريب .

- زيد ، كيف حالك يا زيد ؟!

لم يصدق ما سمع.. لكنه أفاق من ارتباكه ، نظر إلى صاحب الصوت ، وقف بلا حراك.. وقد أحسَّ للحظة بدوار كاد يوقعه أرضاً ، تماسك وهو لا يزال يحدّق بمصدر الصوت..

- لقد تبعتك من حاجز قلنديا..

- لا بأس.. أمهلني قليلاً من الوقت وأعدك بأن أسلمَّ نفسي ، وأفعل بي بعد ذلك ما تشاء .

- وماذا سأفعل بك ؟!

- افعل ما تشاء ، دعني أزور زوجتي ربما لن أراها بعد اليوم..

- أنا أعرف ذلك .

- وماذا تريد مني ؟!

- لا شيء الآن ، ولكن من يدري ربما احتجتك لاحقاً .

- كابتن روني ، ماذا تعني ؟!

- لا شيء ، اذهب ، لن أسألك الآن شيئاً ، لكنَّا حتماً سنلتقي .

- من هذا وماذا يريد منك ؟! سأل سالم والده فيما عيناه معلقتان بالكابتن روني...

وانطلق زيد إلى المصعد غير مبالٍ بغير الوصول إلى رباب.

كلما اقترب من الغرفة ، ثقلت قدماه حتى كاد يفقد الإحساس بهما ، توقف أمام الغرفة رقم 402 ، كان الباب مفتوحاً ، ولا أثر لأحد فيها...لم يعجبه حال الغرفة وغياب رباب وأمه عنها .

- بابا ، أمي ليست هنا !!

بدا القلق على سالم وهو يخبر والده ، ما أزعج زيداً ، وجعله يزداد قلقاً ،

- سالم ، لا تقلق ، اذهب واسأل إحدى الممرضات العاملات في القسم ، إذ لا بد أن تفيدك بشيء .

قبل أن يغادر سالم الغرفة ، دخلت ممرضة روسية الملامح ، سألت زيداً عما يفعله في الغرفة ، أجابها ، فأخبرته بأنهم أخذوها إلى غرفة الأشعة وستعود حال انتهائهم من ذلك .

اطمأن زيد قليلاً ، وحاول طمأنة ابنه سالم .

- تعال ننتظرهما هناك ، قرب باب الغرفة .

خاطب زيد ابنه سالم ، وهو يشدّه من يده نحو الباب .

- ها هي جدتي .

أشار سالم بيده ، فيما استدار زيد نحو ممرض يجر سريراً في الممر ، بينما بدت أم زيد بثوبها الفلسطيني المطرَّز ، الذي كانت تصرّ على ارتدائه وعدم تبديله بأيّ زيّ آخر.. كانت أم زيد تجر قدميها بثقل ، وقد بدت مرهقة والتعب بادٍ على وجهها.. لكنها حين وقع بصرها على سالم ، جاهدت للسعي إليه ، فيما وقف زيد يحدق بهما ، مشدوداً إلى رباب ، ممددة على السرير تارة ، وإلى أمه تارة أخرى ، وقد بدا عليه الذعر والقلق .

دفع قدميه نحو رباب ، كانت ممددةً لا تبدي أي حراك ، أو إشارة بأنها على قيد الحياة ، حدّق في المشهد وقد تجمدت مشاعره ، يحاول أن يلم شتات أفكاره التي تناثرت.. أفاق على يد تمسك بذراعه .

قبل أن يراها ، راحت أم زيد تشدّه إليه ، احتضن والدته وقد أجهش بالبكاء.. فيما تقدم سالم محدقاً بهما ، وقد أذهله المشهد ، الصمت أحياناً أبلغ من الكلام ، وبعض المشاهد لا نص يستوعبها ، ولا كلام يعبر عن وصفها .

شدته إليها ، احتضنت رأسه كأنما فهمته ، وهي أمه التي لا أحد يفهمه أكثر منها .

إبكِ يا بني ، أنا أعرف كم هي عزيزة عليك هذه الدموع ، لكن رباب ، تستحق كل ما ادخرت منها ، ابكِ يا بني ، ابكِ يا حبيبي.. ليس في الحياة ما يستحق البكاء.. أكثر من رحيل أحبتنا..

كان زيد يجهش بالبكاء ويزداد نحيبه ، كأنما أخذ من أمه الإذن بذلك.. فأطلق العنان لدموعه تنهمر كما تشاء ، بعضها على رباب ، لكن جزءاً منها على أشياء أخرى ، لا يعرفها أحد سواه.. أشياء تراكمت في أعماقه طوال عشرات السنين ، خبأها في قلبه ، ولم يبح بها لأحد ، واعتقد ذات يوم أنه تجاوزها ، وأن الزمن كفيل بطي صفحات العمر ، حتى ننسى.. أو نتناسى .

ها هي صفحات العمر تنتصب أمامه ، صفحة إثر صفحة ، مثل مفكرة نسي انتزاع صفحاتها ، ثمانٍ وعشرون سنة مرت على لقائهما الأول ، كان ذلك بعد الاحتلال مباشرةً ، لم يكن مضى على تسلله إلى أريحا ، عبر نهر الأردن سوى بضعة شهور ، عندما قرر العودة سرّاً ، رغم معرفته بالمخاطر ، التي قد يتعرض لها ، لكن عشقه لأريحا ، كان أكبر من حبه لزينب ، التي رفضت العودة معه ، أحب زينب لكن حبّه لأريحا كان أكبر ، لم يكن قادراً على فراق أريحا ، كان يموت كل ليلة نام فيها بعيداً عن أريحا ورام الله بعد الاحتلال ،

كلما وضع رأسه على مخدته ، لازمته الكوابيس حتى مطلع الفجر ، وجافاه النوم حتى الصباح ، يتقلب في سريره ، يستحضر أريحا ، يكاد يعد شجر النخيل في بساتينها ، وتملؤه رائحة زهر الليمون وهو يغادرها صاعداً الطريق المتعرّج نحو رام الله ، عبر بلدة الطيبة ، وحين يهبط الطريق المؤدية إلى البالوع شمال رام الله معرّجاً على مدينة البيرة ، المحاذية لرام الله ، يواصل إلى المنارة وسط المدينة التي عشقها يصرخ في نومه ، ويصحو كأنه في نومه حتى لم يحتمل ذاك البعد ، فقرر ذات فجر الرحيل إلى رام الله عبر أريحا ، وكان ما كان ، التقاها هناك ، وبعد شهور من الصداقة ، أحبها وأحبته ، حين عاد إلى رام الله وأريحا ، لم يكن يريد أكثر من ذلك.. أن يلتقي حبه ويعيش حياته .

- ارجع يا بني هداك الله ، وطنك محتل ، وما فائدة العيش في وطن محتل ، إن كنت تعود من أجل إنقاذ وطنك ، فلا بأس ، وإلا ، فلا داعي للمخاطرة من أجل العيش في رام الله تحت نير الاحتلال ، أنت شاب والمستقبل أمامك ، فلا تضيّع مستقبلك..

كان صوت الجندي الأردني فايز الكيلاني ، الذي يقف على ضفاف نهر الأردن والذي ضبطه وهو في طريقه متسللاً إلى العوجا- شمال أريحا – عبر نهر الأردن وحاول إقناعه بالعدول عن المخاطرة ، لا يزال يتردد صداه في أعماقه وصورة ذلك الجندي ماثلة في ذاكرته لكنه لم ينسَ رده على الجندي..

- لست معنياً بالاحتلال ، سوف أعيش حياة قانعة ، وما دمت في حالي ، فلن يتعرّضوا لي..

- وهل تعتقد بأنهم سوف يتركونك في حالك ؟!

- مالي ومال الاحتلال ، هم في حالهم وأنا في حالي..

آه يا فايز الكيلاني ، ما زلت أذكرك وأذكر كلامك.. لم يتركني الاحتلال في حالي ، منعوني حتى من الحب ، فقررت الالتحاق بالمقاومة من أجل الدفاع عن حقي في الحب ، سرقوا مني أحلامي يا فايز الكيلاني ، لا مكان للحب في وطن محتل ، على الاحتلال أن يرحل من أجل أن نحب ، أنا لا أريد إلا رباب ، سوف أقاتل من أجل حبي.. هل تفهم يا فايز الكيلاني ، ما زال يلاحقني ، الكابتن روني ما زال يتبعني.. بعد ثلاثين سنة ، لا يزال روني يلاحقني..

- زيد..

بالكاد سمع صوتاً يناديه.. التفت نحو الصوت كان ابنه سالم متشبثاً بأمّه ، فيما وقفت أم زيد في حال من الذهول ، مشدودة إلى رباب التي افتعلت ابتسامة وهي تمد يدها إليه ، وتشد سالم إليها باليد الأخرى..

بحذر شديد ، تقدم زيد نحو رباب غير مصدق ، لولا أمه التي بادرته بالدعاء .

- ربك كبير.. وهو العالِم بحالنا..

- أنا بخير ، فلا تقلقوا .

أدرك زيد بأنَّ رباب لا تزال قوية ولم تنكسر.. اقترب منها ، جلس على طرف السرير وراح يداعب يدها ، يمسّدها تارة ، ويحضنها بين يديه مقبّلاً باطنها تارة أخرى ، محدّقاً في وجهها كأنما يراها لأول مرّة.. أو ربما كان يعتذر عن خطايا تراكمت وتعددت وإحساس بالندم بدأ يتسلل إليه من حيث لا يدري.

6

زيد ، ها أنت في وطنك ، وطنك الذي أمضيت عمرك تركض خلفه ، وكلما اقتربت منه ، فرَّ من بين يديك ، دفعت شبابك ثمناً للعيش فيه ، وجل ما كنت تبغيه ، أن يمنحك السعادة والفرح ، عدت إليه متسللاً ، بعد أن بعت حبك الأول من أجل حبك لأريحا ورام الله والقدس فهل بادلتك الحب هذه المدن ، التي عشقتها وكدت تموت من أجلها ، أمضيت شبابك في السجن تارةً وفي الشتات تارة أخرى ، وها أنت في وطنك مرة أخرى ، وها هي رباب التي اعتقدت بأنها آخر الأحزان وأول الفرح ، يستقبلك الوطن بحزن جديد ، أكبر من كل الأحزان التي مرّت عليك ، ولا يبدو أول للفرح ، كأنه حب من طرف واحد ، وكأنك تغرق في الحزن من جديد .

عشت حياتك في الغربة بالطول والعرض ، حتى كدت تنسى رباب ومدنك التي عشقتها ، حين أخذتك المدن الجديدة وكدت تضيع في زحمتها ، ويوم قررت العودة لم تكن رباب سبباً رئيساً في اتخاذك قرار العودة ، ربما كان ابنك سالم ، وربما كان عشقك لرام الله وأريحا ، أموراً وأسباباً أخرى ، وحدك تعرفها ولا أحد سواك ، عد إلى الأيام القليلة الماضية ، يوم وصلت إلى غزة ، ثم انتظارك في رفح والعريش ، وحتى وأنت في القاهرة ، أين كانت رباب من لهفتك ، أخذتك باريس وروما وأثينا حتى كدت تنساها.. أخذتك مدن أخرى غير مدنك التي أحببتها ذات يوم ، وعدت إليها متسللاً ، أنسيت حين كدت تقع بأيدي دورية حرس الحدود ، لولا سالم ، سالم الذي أنقذك ، وسالم الذي كان سبباً في انضمامك إلى المقاومة ، مقاومة الاحتلال ، من أجل حريتك أولاً ، من أجل حبك ، الذي منعوك من ممارسته فقررت مقاومتهم ، لأجل حبك ، وامتلاك حريتك وحقك في الحب والحياة ، سخرت منهم يوم أبعدوك ، لكنك لم تدرك ما فعلوه بك ، انظر

إلى نفسك ، زيد الذي كان ، ليس زيداً العائد من غربة تحررت فيها من ضغوط الاحتلال وملاحقة الكابتن روني.. كل شيء على حاله إلاك ، الاحتلال وأدواته ، الحواجز وحرس الحدود ، كل ذلك على حاله مثلما كان قبل خمس عشرة سنة ، لم يتغير شيء ، وحدك الذي تغيرت ، حلمك الذي حملته معك ، ولازمك تلك السنين ، ها هو ينكسر على حاجز قلنديه ، وعنجهيّة الكابتن روني ، الذي لا يزال يلاحقك ، رباب لم تتغير ، حتى في مرضها ، ما زالت رباب التي أحببتها ، لكنك تغيرت ، أنت وحدك الذي تغيّر يا زيد ، وحلمك الذي سعيت إليه ، ما زال يراوح عند جمر يختبئ خلف رماد السنين وجذوة الأمل الذي لم ينهزم وظل في داخلك يقاوم الريح ولم ينكسر ، ها أنت تعود وها هو ينكسر .

كان زيد خرج إلى الردهة منتهزاً انشغال رباب بحديث مع ابنها سالم ، فيما لحقت به ام زيد ، لكن طبيباً دخل الغرفة وتوجه إلى رباب وبدأ بإجراء فحوصات عادية استغرقت دقائق ، قبل أن يلتفت الطبيب إلى زيد حيث أشارت رباب وأصغت إليه تستطلع الأمر .

- مرحباً ، لا شيء نستطيع تقديمه ، تحتاج رباب لعلاج كيميائي ، وهذا متوفر في مستشفى المطلع بالقدس الشرقية ، يمكنها المغادرة إلى البيت ومراجعة المطلع لاستكمال علاجها .

استحن زيد الأمر ، رغم أنَّ حديث الطبيب وتعليماته لم تحمل الطمأنينة له ، لكنه شكره ورافقه إلى الردهة ، ثم قفل عائداً إلى أمّه طالباً مساعدة رباب ريثما ينهي معاملة مغادرتها المستشفى .

اصطحب سالماً في طريقه ، وغادر الغرفة لإنهاء مهمته ، لم يستغرقه ذلك طويلاً ، لكنَّ البحث عن سيارة إسعاف تنقل رباب إلى حاجز قلندية كان أصعب .

الطريق إلى رام الله عبر مخيم قلندية لا تزال على حالها لم تتغير منذ أنَّ تم فتحها قبل سنة من احتلال المنطقة حيث كانت الطريق بين رام الله والقدس تمر وسط

المطار ، فإن صادف هبوط طائرة ، توقف مرور السيارات إلى حين هبوطها ، لا تزال رباب تذكر ذلك جيداً ، لكن الطريق إلى رام الله مختلف هذه المرة ، أو هكذا رآه ، لا شك أنَّ رباب هي المختلفة وليست الطريق ، التلال الممتدة خلف الكسارات التي قضمت من الجبال والتلال المحيطة بالمخيم والقرى المجاورة جزءاً كبيراً منها ، فشوهت طبيعتها ، وأفسدت المنطقة بأسرها ، حيث اصطبغت الجبال والبيوت وما تبقى من أشجار بغبار الكسارات ، فيما ارتفعت البنايات بشكل عشوائي حول الطريق ، وكذلك التعدّيات على الشارع وعلى أملاك الغير .

- انظر إلى المنطقة وما فعلوه بها !! دمرّوا كل شيء .

هزَّ زيد رأسه دون أن يرفع عينيه عن رباب ، كأنما لم يجد ما يضيفه ، ربما بحث عن إضافة أو تعليق فلم يجد ، وحين عجز آثر الصمت وواصل النظر إلى رباب كأنما يقول لها – هناك ما هو أهم من ذلك .

الطريق مزدحم بالسيارات وبالمشاة المتجهين إلى الحاجز ، متجهمين ، يلعنون الاحتلال وكل من كان سبباً في سوء حالهم ومن أوصلوهم ، إلى ما هم فيه ، رائحة النفايات المتراكمة على جانبي الشارع والحفر التي تذكرك بالإسفلت الذي كان يغطي الطريق قبل عشرات السنين ولم يبقَ منه غير القليل على الأطراف .

هنا تحس باغتراب شديد ، كأن المنطقة جملاً خارج النص والناس مفردات في نص غير متماسك ، تناثرت حروفه فلم تعد تجد له معنى ، النَّاس هنا يحثون الخطى نحو الحاجز ، لا شأن لهم بما يجري حولهم ولا علاقة لهم بالمكان ، كأنهم لا يرون ما يجري حولهم ، لا يشدَّهم شيء سوى الطابور وزحمة المتعاركين المتسابقين للعبور إلى القدس ، وجنود الاحتلال يتفننون في إيذائهم والتلذذ بإذلالهم ، يمتلئون حقداً على الآخر ، أما هؤلاء العابرون إلى القدس فلا حول لهم ولا قوة ، تقاطر الباعة قرب الحاجز ، يبيعون كل شيء ، كل شيء ، الفواكه والملابس والأجهزة الكهربائية الرخيصة ، أجهزة الهاتف والأجهزة الخليوية ، كل شيء حتى الكتب والمجلات والساندويشات المختلفة ، هنا سوق مفتوحة في منطقة حرة ،

ليست فلسطينية ولا إسرائيلية ، لا ضرائب ولا جمارك كل شيء قابل للبيع ، بما في ذلك المخدرات وقد يبيعك سائق إلى آخر ، والسماسرة ينتشرون في الزحمة ، ولا شك في أن عيون المخابرات والعملاء في المكان أيضاً .

في المنحدر الممتد أمام مسجد كفر عقب الذي ارتفعت مئذنته فوق أعلى تلة في المنطقة ينكشف المنحدر فتبدو القدس بضواحيها من بعيد ، بدءاً بقلنديا وانتهاءاً بجبل المكبر ، الذي يبدو من بعيد ، مطلاً على المشهد مأخوذاً بما يجري ، منتظراً ، لعلَّ الذين عبروا إلى القدس ذات يوم يعودون ثانية.. أو الذين غادروها يعودون إليها..

كانت رباب تحب الصعود إلى الأعلى ، تقف أمام الجامع الذي تبدو مئذنته مثل منارة على شاطئ بعيد .

لم يبقَ في المنحدر من أشجار الزيتون واللوز و أشجار الصنوبر والبلوط والزعرور غير القليل حيث تحول المشهد إلى كومة من الحجارة ، يتخللها عدد قليل من الأشجار تكاد تحصيها.

واصل زيد التحديق برباب ، فيما جاهدت لفتح عينيها والنظر إلى وجهه ، تسللت يدها تبحث عن يده ، وحين لامستها ، ضغطت عليها كأنما تتأكد من وجوده إلى جانبها..

بدت رباب تعبة ، عيناها ثقيلتان لا تقو على فتحهما طويلاً ، إحساسها المتقطع بما يجري حولها ، أشبه بانقطاع الكهرباء أو عدم انتظامها ،

رفعت يدها عن يد زيد ، مسحت عرقاً راح يتصبب من أنحاء جسدها ، توقفت يدها تتحسس جبينها حين أحست بحرارة تصعد إلى رأسها .

دقائق ونصل إلى البيت ، فقد خرجنا من زحمة الحاجز ودخلنا إلى رام الله ، بادر زيد محاولاً طمأنة رباب ، فيما امتدت يد أم زيد إلى رأس رباب وراحت تتلو ما

تيسر من القرآن على رأسها ، لعلها تطرد الشر وتخفف عنها ، وتبعث الطمأنينة إلى قلبها ، بينما كان سالم سكوتاً ، يؤثر الاستماع إلى محدثه ، والتمعن فيما يقول ، ورغم بلوغه المبكر ، إلا أنَّه كان يبدو أكبر من ذلك بكثير ، فقد أفاق على صوت دبابات الاحتلال وعرباتهم العسكرية ، تجتاح مدينته كل يوم ، تجوب الشوارع معلنة حظر التجوال ، تنشر الرعب والموت في عيون الأطفال والنساء والشيوخ ، كان سالم مثل كل الأطفال يبحث عن تفسير لما يجري وأجوبة لأسئلة كثيرة يقف عاجزاً أمامها ، سنة بعد أخرى ، لم يتغير المشهد أمام ناظريه ، بل إنه ازداد سوءاً وسوداوية ، سأل نفسه مرات ومرات ، لماذا كل هذا الحقد ؟ لماذا يكرهوننا إلى هذا الحد ؟ ماذا فعلنا لهم ؟! لقد جاءونا من كل بقاع الأرض ، أخذوا أرضنا ودمروا بيوتنا ، طردونا وحولونا إلى لاجئين ، ولم يكتفوا بذلك ، بل إنهم ما زالوا يطاردوننا أينما ذهبنا ، نضج قبل أوانه ، مثل كل الأطفال في بلدهِ عبثاً يحاول استعادة طفولته أينما اتجه ، يقف الاحتلال حائلاً دون أحلامه تنكسر براءته أمام عربات الاحتلال ودباباته ومجنزراته ، وحين كبر ، أدرك أنَّ ما حل بوالديه ، يتكرر له ، وسوف يتكرر لأجيال من بعده .

جلس سالم صامتاً يسرّح نظره بين أمه وأبيه وجدته ، باحثاً عن إجابات لأسئلة كثيرة ازدحمت في رأسه فاختلطت عليه الأمور ولم يعد يفهم معظمها .

نظر السائق إليهم عبر مرآة سيارة الإسعاف منطلقاً عبر الشارع الرئيس المؤديّ إلى ميدان المنارة وسط المدينة ، حيث يتقاطر الناس مغادرين سوق الخضار والمحلات التجارية المحيطة بالسوق ومحطة الباصات القريبة ، فيما ازدحمت سيارات الأجرة وعلت أصوات سائقيها ينادون على الركاب المغادرين إلى حاجز قلندية ، في طريقهم إلى القدس وضواحيها.

..يا موت ، تمنيتك ذات يوم ولم تأتِ ، انتظرتك خلف أبواب موصدة ولم ينفتح أي منها ، تعاركت مع ذكرياتي ، وأصابني هوس الرحيل إلى المدن الغريبة ، ظننت أن حقائبي لن تتسع لذكرياتي ، فرحلت من دونها ، وفرحت حين اعتقدت بأني

راحل ، لا شيء معي ، لا حقائب ، لا ذكريات ، لكني أعترف الآن بأني كنت كلما أوغلت في الرحيل ، حاصرتني ذكرياتي ، وسخرت مني حقائبي ، فلا الرحيل ، ولا السفر ، ولا الحقائب التي تعمّدت نسيانها ، حالت دون أشيائك الصغيرة ، التي انغرست في قلبك ، حلماً يزورك كل ليلة ، مضمّخاً بالدم والجمر والعلقم ، أه يا زيد ، ظننت أنَّ البلاد الغريبة أينما كانت ، سوف تمنحك الدفء ، تعاقبت النساء على سريرك فلم تعد تذكر أسماءهن ، كنت تبدلهن مثلما تبدّل ملابسك الداخلية ، وإن التقيت إحداهن ، تعلَّقت بها وأمضيت الليل معها في المقاهي الصغيرة ، التي كنت تعشقها ، تتحدثان في الأدب والفن والسياسة ، وربما في موضوعات سخيفة ، بعد أن تنتهي الموضوعات كلها بدءاً بحكايات ماركس وانتهاءً بالأبراج ، تسهب في الحديث عن برج الميزان وطيبة أهله ، وانتهاءً ببرج الجوزاء وعلاقة أهله بالفن والذوق الرفيع ، ثم ينتهي الأمر بكما في ذات السرير ، وإن تشابهت الأسرَّة ، واختلفت ألوانها...

وحين يعافك السرير تغادره ، لتشرب قهوتك ، تتذكر أنَّ سيدة لديك ، لا أحد هناك لا بد أنها سبقتك وانصرفت دون أن تودّعك ، من دون رسالة تعتذر فيها عن اضطرارها للرحيل دون أن تراك ، تشكرك على حسن ضيافتك ، متمنية أن تلتقيك ثانية ، تبحث عنها في المقهى حيث التقيتها ، تمكث ساعات لعلها تأتي.. لكنها لا تأتي ، وربما جاءت ذات مساء ورأتك تتجاذب الحديث مع واحدة أخرى ، فآثرت الانسحاب ، وربما نسيت وجهك ، ولم تتعرف عليك ، وربما مرَّت أمامك ، رأيتها لكنك لم تعرفها ، ولم تتذكرها ، خجلت أو ربما سخرت من نفسها وانسحبت بصمت ، أما أنت فكنت تواصل رحلتك مع غيرها وغيرها ، دون أن تملّ ، كأنك تبحث عن شيء ما ، في امرأة ما ، تتشابه النساء ، إلا رباب لا يشبهها أحد ، كأنك كنت تبحث عنها في كل النساء ، اللواتي عرفتهن ومررت بهن ، أو مررن بك ، وها أنت تعود ، كأن العودة أنقذتك ، وربما كانت العودة شكلاً من أشكال الرحيل ، ها أنت ترحل من جديد ، بل تواصل رحيلك ، أنت هنا ، ورباب هنا ، كأنها امرأة أخرى ، أو ربما أنت زيد آخر ، اختلطت عليك الأمور وتداخلت حتى فقدتَّ توازنك ، لم تعترف بذلك وكنت تبرر سلوكك وتجهد في إقناع نفسك

وأنت تدرك أنَّ كل ما تفعله ليس أكثر من هروب ، حتى ارتطم رأسك بالحائط فصحوت ، أو ربما لم تصح بعد .

ها هي رباب أمامك ، تستلقي على سريرها ، عاجزة ، وعجزها ليس أكثر من عجزك ، أقعدها المرض ، حتى بتّ أضعف من رباب التي تستلقي في غرفتها شبه غائبة عن الوعي ، تحدق بها فيما يدسّ سالم جسده إلى جانب أمّه مثلما كان يفعل في طفولته ، يحضنها بذراعيه ، لكنها نائمة أو غائبة عن الوعي ، لا تبدي أي رد فعل ، انسحبت أم زيد إلى المطبخ ، فيما كان زيد يقترب من سالم ويدعوه إلى مغادرة الغرفة .

- سالم ، تعال معي ، أمك نائمة فلا تزعجها .

انسحب سالم من جانب أمه ، متثاقلاً وعلى مضض ، ينظر تارة إلى أمه ، وتارة إلى أبيه ، فيما وقف زيد يحثه على مغادرة الغرفة ، فلا يجد مناصاً من الانصياع لوالده .

كأنما يراها لأول مرَّة ، كبرت الدالية حتى غطت العريشة ، حيث أخذته قدماه إلى اثنتي عشرة سنة مضت ، هنا أمضى ليالٍ طويلة ، صورٌ تماهت أمام ناظريه ، صور شتى تزاحمت على نوافذ ذاكرته ، جهد في إعادة تشكيلها قبل أن تفلت وتنزلق بعيداً ، لكن صورة أبيه لا تزال محفورة في الذاكرة ، وتبدو أكثر وضوحاً من الصور الأخرى ، حدَّق في وجه والده ، الذي رآه جالساً على صوفة الخيزران القديمة ، يداعب سبحته الطويلة ذات الحبَّات السوداء ، والشاهدان المرصعان بأحجار كريمة ، والتي لم تفارقه منذ أورثته إياها والدته ، متكئاً على عصا ظلت تصحبه منذ أن انزلق غضروفه باكراً في حوض الحمام وبدأت رحلته الطويلة مع الآم ظهره .

- آه يا أبا زيد ، استعجلت الرحيل ، مثل كل الذين نحبهم ، يستعجلون الرحيل دائماً ، مضى العمر سريعاً يا أبا زيد ،

لم نحس به ، مثل ريح مرت على بيدر ، تحمل ما تستطيع حمله ، يتطاير الزرع وتختبئ السنابل في ثنايا البيدر ، تطاير العمر وأخذ معه من نحبهم ، كم هو قصير هذا العمر ، قصير إلى حدّ لا يسمح بتحقيق أحلامنا ، نغرق في الحلم وحين نصحو ، نكتشف أنَّ الحلم ذاته يحاصرنا ، ولا نملك فكاكاً من أسره ، داهمنا العمر وغادرنا الذين نحبهم ، واحداً تلو الآخر ، كأنهم النجوم تهوي ، نجماً إثر نجم ، يطبق الظلام على سمائك وتضيق بك الأرض حتى تصبح باتساع القبر ، ليس أكثر .

ينفتح الفضاء ملفّعاً بالأبيض ، ضباباً يغطّي التلال الممتدة من رام الله باتجاه الساحل ، متسللاً من البحر عبر الأودية ، فيضفي على المشهد سحراً آخر يشدّك إلى المدينة ، سحراً قلّما تجده في مدينة أخرى .

- آه يا أبا زيد ، لماذا تقسو الحياة علينا بهذا القدر ، نحبها ونتمسك بها ، تعطينا الكثير ، لكنها تأخذ منَّا ما اعتقدنا أننا امتلكناه إلى الأبد ، رباب تموت أمام ناظري ، ولا أملك أي شيء ، رباب الجميلة يا أبي ، ترحل بعيداً ، ولا أستطيع فعل شيء لأمنع رحيلها ، الحياة تمعن في قسوتها ، تلاحقني وتغلق الدروب كلها ، ماذا عساي أن أفعل ، أشر عليَّ يا والدي ، أنا قادر على مواجهة الصعاب أياً كانت ، وقد واجهتها وهزمتها لكنه الموت يا أبا زيد ، إنه الرحيل الأبدي ، وهذا الرحيل لا يُحتمل .

اغرورقت عيناه ، ولم يفكر حتى بالتوقف عن البكاء ، فقد جرى الدمع غزيراً ، استسلم زيد له ، ولم يقاوم تدفقه ، فقد أحس براحة كان بحاجة إليها ، فأطلق العنان لدمعه يتدفق كيفما شاء ، لكن طيف والده ، كان يتشكّل ظلّاً ، يتجسد

أمامه ، يستند على عكّازته ، وسبحته القديمة ، مثل نص قديم في مخطوطة بالية علاها الغبار وأكلت حروفها رطوبة المكان ، بانتظار من يعيد قراءة حروفها ويترجم مضمون كلماتها ، حدَّق في طيف والده كأنما يستحضره ، إنه أمامه بشحمه ولحمه ، ينظر إليه مبتسماً أو ربما ساخراً ، يقترب منه ، يهمس له ويسمعه..

- نحن يا بني لا نملك أن نغير قدرنا وفي عنفوان شبابنا وانتشائنا بالعزّة والقوة الزائفة ، نسخر من أقدارنا ونعتقد أننا قادرون على رسم خطوط مستقبلنا ، غير أنَّ الخوف يتملكنا حين نستشعر الخطر ، فينتابنا إحساس بالعجز ، يحاصرنا فلا نملك غير الإستسلام لهذا القدر والاعتراف بالهزيمة ، عندها نتمسك بدعائنا إلى الله واعترافنا بضعفنا وعجزنا .

اللهم لا نسألك ردَّ القضاء ، لكنا نسألك اللطف فيه .

7

على مهلٍ ودون أن تُحدث صوتاً ، كأنما مشت على رؤوس أصابعها ، تقدّمت أم زيد حاملة إبريق الشاي بيد والفناجين بيد أخرى ، فيما كان سالم يجهد في دفع الأرجوحة إلى الأمام ، دون أن يلتفت إلى أحد ، مواصلاً انشغاله بأرجوحته ، دافعاً قدميه في الهواء ، مغمضاً عينيه كلما اندفع جسده إلى الأمام ، محلقّاً كعصفور فوق المنحدر ، تلامس قدماه الضفة الأخرى المقابلة ، ثم لا يلبث أن يعود ، حين تشدهّ الأرجوحة نحو العريشة ، فيصحو من حلمه على صوت جدته تدعوه لشرب الشاي معها ومع والده ، يقطع حلمه ، أو يعلّقه على أمل العودة إليه والتحليق ثانية في الأودية والتلال المقابلة ، يغادر أرجوحته التي أحبها منذ طفولته وتعلق بها حتى حين أصبح شاباً .

خيَّم الصمت على المكان ، خلا حفيف أوراق شجرة الكينا القريبة من العريشة ، وصوت بعض العصافير التي تقاطرت على شجرة الصفصاف الممتدة أغصانها حتى أطراف الدالية.

حدَّق زيد في عصفور حط على غصن قريب تجنبت بقية العصافير الاقتراب منه ، كأنها ملتزمة بنظام غير مكتوب ، لا يسمح لأحد بالاقتراب من أملاك الغير ، كان العصفور يحمل في منقاره طعاماً لم يتبينه زيد ، لكنه أدرك أنه طعام لصغيره الذي لا يزال غضّاً لا يقوى على الطيران ، فاختبأ في عشٍ أعدته أمّه ولم يغادره منذ كان محصّناً في بيضته ، ما لبث أن ضاق ذرعاً بها فشقها وانطلق مترنحاً مصارعاً من أجل البقاء ،أما سالم فقد غادر مقعده بجوار والده ، مهرولاً نحو أمه ، كأنما أحس بها تناديه ، فيما تبعه زيد بناظريه ، وقد خالجه شعور بأن شيئاً ما قد حدث...حاول النهوض واللحاق بابنه ،لكن قدميه لم تسعفاه ، نهضت أم زيد

وقد أحست بالقلق الذي أقعد زيداً عن اللحاق بابنه ، لكنها لم تقو على ردع سالم ومنعه من التسلل إلى أمّه... وقفت عند باب الغرفة مذهولة ، محدقة بسالم وهو يعانق أمه... استندت إلى الباب وقد أحست بدوار كاد يفقدها توازنها ، وهي تحدق بالمشهد مأخوذة بما ترى... اقترب زيد من أمّه ، أمسك بيدها ودفعها إلى الخلف ، بيد أن الخوف من خبر سيء منعه من الاقتراب أكثر... وقف وسط الحجرة محدّقاً بالسرير ، وقد تهيأ لرؤية ما لم يكن يرغب في رؤيته ، رغم إدراكه بأنَّ الأمر آتٍ غير بعيد ، كاد يجهش بالبكاء ، لولا يد رباب التي تحركت لتحضن سالم ، خطا زيد نحو السرير ، فيما كانت رباب تجهد لرفع يدها كأنما أرادت أن تدعوه إلى الاقتراب منها .

- هل أنت بخير ؟!

سأل زيد رباب بصوتٍ أجش .

- أنا بخير ، انظر إلى سالم ، مضى وقت طويل لم يعانقني كما يفعل الآن .

- تعلق بكِ أكثر مني .

- لم يرك منذ زمن طويل .

- لكنه بدأ يستعيدني في ذاكرته ، ويوصل ما انقطع منها .

مدَّ يده ماراً بها على جبينها ، لكنه سرعان ما تراجع حين لامست يده طرف شعرها المتساقط .

- هل ترغبين في شيء ؟

- اشتقت إلى فنجان قهوة من يديك .

أسرع زيد إلى المطبخ ، كأنما يهرب من حديث قد يقترب من حالها ، ويلامس الدمار الذي انتشر في أنحاء جسدها ، لم يغب طويلاً ، وحين عاد بالقهوة ، لم يكد يدخل الغرفة حتى وقف محدقاً في السرير حين رأى سالم يكاد يذوب في أمه ، ملتصقاً بها ، يشدها إليه ، ويدفع جسده إليها ، كأنما أدرك بأنها راحلة .

احتضنته ، محاولة إخفاء دموعها..

حاولت رباب الاعتدال في سريرها حين رأت زيداً يدخل حاملاً صينية القهوة ، لكنها لم تستطع ، فاستسلمت لزيد الذي أسرع لمساعدتها.

- لا بأس عليكِ ، أنت بحاجة إلى الراحة ليس أكثر ، سوف تتعافين .

- أعطني القهوة ولا داعي لمجاملتي ، أنا مريضة وأعرف ذلك ، لكني أنسى أحياناً حالي ، عليَّ أن أتعود ذلك .

نظر زيد إليها لكنه لم يستطع مواصلة التحديق بها حين التقت أعينهما ، استدار نحو فنجان القهوة ، إذ لم يجد ذريعة أخرى للهرب من عينيها .

خيَّم الصمت على المكان ، ولم يقطعه سوى صوت أم زيد التي دخلت تسأل عن غياب زيد وسالم ، ابتهجت حين رأت رباب جالسة في سريرها تحتضن سالم ، فيما جلس زيد على طرف السرير ، يداعب يد رباب ويربّت عليها كأنما يطمئنها.

تقاطر الجميع ، أم زيد وبعض الجارات ، إلى غرفة رباب ، ملتفين حول سريرها ، غير مصدّقين تعافيها ، حتى ضاق المكان بهم ، تعالت أصواتهم ، واختلط حديثهم ، فلم يعد أحدهم يفهم ما يقوله الآخر ، بدت رباب منزعجة ، انسل وقد لاحظ انزعاجها ، في مبادرة قد يفهمها الآخرون ويتبعونه ، لكنَّ أحداً لم يغادر ، انتظر قليلاً ثم عاد إلى الغرفة وقد قرر أن يتصرف بنفسه .

- شكراً لكم ، أرجو إخلاء الغرفة ، تريد رباب أن تنام ، شكراً

لزيارتكم.. سالم.. تعال معي.. دع أمك تنام قليلاً .

حاول سالم التلكؤ والتحايل على والده ، لعله يحظى بوقتٍ إضافي مع أمه ، لكنَّ والده أصرَّ على اصطحابه والتأكد من مغادرته ، فيما كانت رباب تستسلم لنومٍ داهمها منذ حين ، لكنها قاومته خجلاً من ضيوفها .

كان زيد وسالم آخر المغادرين غرفة رباب ، فيما كانت أم زيد سبقتها مصطحبة ضيوفها إلى الخارج .

غداً صباحاً سوف أبدأ رحلة العذاب عبر حواجز جيش الاحتلال ، للوصول إلى مستشفى المطلع ، عند أطراف جبل الزيتون ، المطل على القدس القديمة ، مصطحباً رباب ، حيث جلسات الكيماوي .

من أين سأعبر إلى القدس ؟! ..من معبر قلنديا ، أم من معبر حزما ؟! ، معبر قلنديا أكثر صعوبة من حزما ، سأعبر إذن عبر عناتا ، إذ إنَّ تشابك وتداخل المنازل هناك ، يوفر غطاء للعبور بسلام ، تماماً ، مثلما فعلت في المرة السابقة...

حين اطمأن إلى رباب وقد غفت في سريرها ، انسل من فراشه ، وقبل أن يغادر الغرفة ، نظر إليها ، وسالم في حضنها ، يلف ذراعه حولها ، متشبثاً بها ، كأنما يدرك أنَّ أحداً يتربص بهما ، ويسعى إلى سرقتها منه ،

تسلل زيد إلى المطبخ ، سعياً إلى فنجان قهوة ، لعله يساعد في إبعاد النعاس عن عينيه ، ليله طويل والصباح لا يزال بعيداً...

حمل قهوته وانسل إلى العريشة التي اعتاد الهرب إليها في الليالي الأخيرة ،...آه يا رباب ، كنت أظن أنَّ عذاباتنا سوف تنتهي ، وأننا سنبدأ من جديد ، حياة لا عذاب فيها ، ولا شتات ،

...أنت في شتاتك لم تر العذاب الذي رأيناه هنا ، كان الكابتن روني يطاردنا أينما ذهبنا ، ولم يكف عن ذلك حتى اليوم ،

...أنت تظلمينني يا رباب ، بقدر ما شدني الرحيل والترحال ، بقدر ما شدني شيء ما في هذا الوطن ، شيء لا أعرف كنهه ، لكنني أعرف أنني كنت أرحل وفي داخلي وازع ما ، كأني أبحث عن شيء ضاع مني ، أركض خلفه ولا أدركه ، ما زلت أبحث عنه فلا أجده ، حتى بعد عودتي ، ما زلت أبحث عنه ولا أجده ، غريب أنا ، أم هي البلاد غريبة ؟! حتى النَّاس ، لم يعودوا أولئك الذين عرفتهم ، كل شيء تغير ، ليس النَّاس فحسب ، بل المكان أيضاً ، الكل تغير ، أنا ، أنت ، النَّاس ، المكان ، الحقيقة الوحيدة الباقية ولم تتغير ، الاحتلال ، الاحتلال يا رباب الكابتن روني وحده لم يتغير ، لا يزال كلب الحراسة – الذي عرفته - ، يلاحقنا أينما ذهبنا وحيثما حللنا .

أفاق على صوت المؤذن ينادي...

- الصلاة خيرٌ من النوم .

- أي نوم يا سيدنا الشيخ ؟!

نهض ثانيةً حين أدرك حاجته إلى فنجان آخر من القهوة ، كانت أمه سبقته إلى المطبخ ، وقد أنهت صلاتها للتو ،

كانت الشمس تجهد في شق طريقها نحو الأفق البعيد متثاقلة ، غير راغبة في المغيب ، أحسَّ بها تصعد متعبة كأنها راغبة في النوم ، تتثاءب تارةً وحين تدرك حال الراغبين بها ، المنتظرين ضياءها تشد الرحال من جديد وتندفع في رحلتها اليومية نحو كبد السماء .

انشغل زيد وأمه بتجهيز رباب ، فيما كان صوت السيارة التي ستقلهما إلى القدس ينذر بوصولها وجاهزيتها للانطلاق.

الطريق إلى حاجز قلنديا سالكة ، انعطف السائق يساراً ، متحاشياً المعبر الرئيس إلى القدس متوجهاً إلى قرية جبع ثم حزما حيث المعبر هناك أقل تعقيداً ، وفرص

الإفلات من حرس الحدود ، حيث أجهزة الأمن والمخابرات أقل انتشاراً من معبر قلنديا .

واصل السائق طريقه نحو حاجز حزما ، انعطف يميناً عند قرية جبع ، فيما حدَّق زيد في آدم مستعمرة على يساره .

- يوم أبعدوني كانت بيوت هذه المستعمرة لا تزيد عن العشرين بيتاً مؤقتاً ، انظر إليها اليوم كثُرت وامتدت ، حتى فاق عددها الخمسين بيتاً...

- والحبل على الجرار...

ردَّ السائق ، وصمت .

توقف قبل وصوله إلى الدوّار ، حين رأى طابور السيارات المنتظرة دخولها إلى المعبر ، لم يفكر كثيراً ، واصل سيره متخذاً مساره نحو عناتا ، التي تبدو غير بعيدة عن معبر حزما ، تتداخل بيوت عناتا القرية ، وعناتا المخيم ، بعضها يتبع القدس ، وبعضها الآخر يتبع بلدة عناتا ، وتداخلها هذا دفع الكثيرين إلى الانتقال إليها ، ما أدى إلى تضخم القرية واتساعها ، حتى أصبحت أشبه بالمدن الحدودية ، معبراً للمتسللين إلى القدس ، والهاربين من عيون الشرطة ورجال الأمن الذين يجوبون المنطقة ليلاً نهاراً ،

طريق حزما أو كما يطلق عليها أهل المنطقة طريق أبو جورج ، وهو رئيس العمَّال الذين شقوا الطريق أيام الانتداب البريطاني على فلسطين ، كان في حينه طريقاً لعبور العربات العسكرية وظل كذلك زمن الحكم الأردني وزادت أهمية الشارع بعد إقامة عدد من المستعمرات ، والأهم من ذلك إقامة واحد من أكبر معسكرات جيش الاحتلال ، حيث توسع وجرت عليه إصلاحات هامة حتى أصبح لائقاً للمستعمرين والإسرائيليين الذين يستخدمونه كما هو حال الشوارع ، والطرقات التي يسلكها هؤلاء في أنحاء الأراضي المحتلة ، إذ من السهل عليك

معرفة هوية العابرين لأي شارع في الأراضي المحتلة ، من حال شوارعها ،

لم تتغير الطريق إلى عناتا إلا في بعض منعطفاتها ومقاطعها حيث توسعت ، ونالها طبقة أخرى من الإسفلت ، تمهل السائق عند اقترابه من مفترق عناتا ، انعطف يميناً ، وكاد أن يتوقف لولا أنَّ جندي حرس الحدود أشار له بمواصلة السير.

- الله ستر... علَّق زيد .

- لو أنَّ لوحة السيارة فلسطينية لأوقفنا ، أجاب السائق محدقاً في المرآة كأنما يطمئن على سلامتهم مواصلاً سفره نحو عناتا ،

تعج القرية بالحركة وأصوات الباعة ، فقد اتسعت وامتلأت بأهل القدس الذين غادروها بعد أن هدمت قوات الاحتلال مساكنهم وأحياءهم ، فضاقت بهم أحياء المدينة بعد أن احتلها المستوطنون فتمددت قرية عناتا ، واتصلت بالمخيم الذي حمل اسمها ، رغم محاولات إلحاقه بضاحية شعفاط المحاذية للمخيم .

كانت الطريق مزدحمة بالعابرين ، ومعظمهم مثل زيد لا يملكون تصريحاً للدخول إلى القدس ، يأتون إليها كل يوم ، أشغالهم وأعمالهم وارتباطاتهم بالقدس ، وسلطات الاحتلال لا تمنحهم تصاريح دخول ، لكنَّ مخابراتهم يعرفون أنَّ المئات منهم يدخلون إليها ، يراقبونهم ، ويرونهم يعبرون ولا يتدخلون إلا عند الحاجة ،

الطريق سالك ، رغم الازدحام الشديد ، دخل الشارع الرئيس ، ثم شارع شعفاط نحو التلة الفرنسية ، وواصل باتجاه وادي الجوز ، لكنَّ السائق انعطف يساراً قبل أن يصل إلى المنطقة الصناعية وصعد جبل الزيتون باتجاه الجامعة العبرية دون أن يعكر طريقه أحد ،

قبل أن يدخل بوابة مستشفى المطلع ، فجأةً اعترضتهم سيارة جيب ، توقف

السائق ، لحظات ، توقفت سيارة فورد بيضاء ، ترجل منها أحدهم وتقدم نحو زيد ،

- أما زلت تذكرني يا زيد ؟ .

- وكيف لي أن أنساك وأنت لم تتركني لحظة يا كابتن روني !!!...

لم يستغرق ذلك سوى دقائق معدودات ، دخل سيارته وغادر المكان ، ثم تبعته سيارة الدورّية دون أن يتدخل أحد من أفرادها ، كأنما أراد أن يقول لزيد ، أنا هنا ، أتبعك كظلك ، وسأنال منك متى أشاء ،

فهم زيد الرسالة ، واستوعب ما أراد أن يقوله الكابتن روني ، لكنه آثر الصمت حين نظر إلى رباب وهي تكاد لا تعي ما يدور حولها ، أشار للسائق أن يتقدم نحو مدخل الطوارئ طالباً منه الانتظار ليس بعيداً ، فالأمر لا يستغرق طويل وقت ،

توجه زيد إلى إدارة الطوارئ ، طالباً العون لنقل رباب من السيارة إلى غرفة الطوارئ لمعاينتها والمباشرة بعلاجها بالكيماوي...

لم ينتظر طويلاً حتى انتهت لكنه انتظر أكثر حتى ملكت نفسها واستطاعت مغادرة المستشفى ، انطلق السائق عائداً إلى رام الله ،

- عد من الطريق التي جئنا منها ، وحاول أن تحافظ على هدوئك ،

قال زيد مخاطباً السائق...

دخلوا عناتا دون أن يعترضهم أحد ، اطمأن زيد حين انعطفوا يساراً نحو الشارع الرئيس المؤدي إلى حزما ، كان زيد يحدق في الطريق لعله يلمح الكابتن روني ،

دقائق قبل أن يصل المفترق المؤدي إلى أريحا يميناً ورام الله يساراً ، أبطأ تحسباً لإشارة من حرس الحدود الذين وقفوا قبل المفترق ، كاد أحدهم يشير إليهم بالتوقف ، لكنه تراجع حين تبين لوحة سيارتهم المقدسية ، فأشار لهم بمواصلة السفر ، انعطف يميناً ، نحو طرف قرية حزما الغربي ، متجنباً حاجز حزما وطابور السيارات المنتظرة عبورها إلى القدس بعد تفتيشها والتأكد من هوية العابرين ، فإن كانوا من أهل القدس عبروا وإن لم يكونوا أعادوهم ، وربما تعرضوا للاعتقال أو تعرضوا للاستجواب مصحوباً بالإهانة والشتائم والضرب والركل بالأرجل...

آه يا أبا زيد ، الموت أقصر الطرق إلى الراحة ، القابض على دينه ، كالقابض على الجمر.. نعم ، نحن في زمن يُحسد الميتون على موتهم ، رحلت وتركتنا نمشي على الجمر ، طلباً للخلاص وهرباً من جهنم ،

- إنَّ الله عادل ، ولأنه كذلك ، فليس من العدل أن يعذبنا مرتين ، مرة على أيدي الإسرائيليين ، ومرة في جهنم ، همست رباب ، كأنما ترد على زيد ، فيما أفاق زيد من شروده ، مدَّ يده إلى رباب ، يربت على يدها ، كأنما يطمئنها .

- لا عليك ، سيكون كل شيء على ما يرام ، لا تقلقي ولا تفكري بشيء .

- ثمة أمر ما ، انظر ، يتعالى الدخان ، يبدو أنَّ اشتباكات تجري بين شباب مخيم قلنديا وقوات الاحتلال ، قال السائق فيما كان يبطئ مواصلاً سيره بحذر .

- ماذا سنفعل ، يجب أن نبتعد عن رائحة الغاز .

- هناك طريق جانبية ، عبر كسارات الطريفي ، الطريق سيئة لكننا لا نملك غيرها مخرجاً.

- لا بأس ، افعل ما تشاء ، المهم أن نعبر إلى رام الله بسلام ،

- لا عليك ،

انعطف يميناً حيث الطريق الترابي المؤدي إلى الكسارات ، كان عليه السير بحذر شديد متجنباً الحفر والمطبات ، في شارع ضيق ، تكاد تنقلب السيارات تجنباً لاصطدامها ، كأنَّ الغبار المنبعث من السيارات التي راحت تشق طريقها ، وتتسابق للخروج من مقطع لا يزيد طوله عن كيلومتر واحد ، عبر طريق متعرج وغاية في السوء بفعل السيارات الكبيرة ، المحملة بالحصمة بأنواعها ، والجرافات والمعدات الثقيلة ، حتى صار الشارع مغطى بالتراب والحصى ، تختفي تحتها الحفر ، التي تفاجئك ، فإن تعطلت سيارة ما ، تعطل السير على الشارع لساعات ،

بحذر شديد ، تقدم السائق بعد أن أغلق النوافذ جيداً تحاشياً للغبار ، فيما واصل زيد طمأنة رباب.

أحس بارتياح حين سمع السائق يقول :

- أعتقد أن قطع الطريق لن يستغرقنا طويلاً ، إذ ليس هناك سيارات كثيرة في هذا الوقت من النهار .

قال السائق ذلك ، فيما واصل سفره ، وعينه على الطريق وقد شارف على الدخول في أزمة المخيم ، ليس بعيداً عن المعبر ، حيث أصوات الرصاص لا تزال تُسمع ، رغم الصياح وأصوات الشباب يحذرون بعضهم من جنود تسللوا محاولين اعتقال بعضهم ،

امتلأ الزقاق بالشباب ، هرباً من جنود الاحتلال ، فجأة توقف السائق ، مد زيد بصره يستطلع الأمر ، وقبل أن يسأل عن الأمر ، انفتح باب السيارة ، واندفع شاب يناهز العشرين من عمره ، فيما صرخ شاب آخر بالسائق :

- أسرع ، معك جريح ، إنطلق به إلى مستشفى رام الله قبل أن ينزف ما تبقى من دمه .

كانت رباب في المقعد الخلفي تسند رأسها إلى كتف زيد ، تكاد لا تعي ما يدور حولها ، حاول الشاب حشر نفسه في المقعد الخلفي ، لولا أنَّ زيداً بادره .

- السيدة مريضة والمقعد لا يتسع لأربعة ركاب ، اذهب واجلس في المقعد الأمامي ،

كاد الشاب يطلب من زيد أن يفعل ذلك ، لكنه تراجع حين رآه حانقاً ، طلب إلى السائق مواصلة السير ، وقفز إلى المقعد الأمامي فيما انطلق السائق نحو الشارع الرئيس المؤدي إلى مدخل مخيم قلنديا ،

كان صوت الرصاص لا يزال يُسمع عبر الزقاق الأخير المؤدي إلى السوق المحيط بمسجد المخيم ، فيما ازدحم الشارع الوحيد المؤدي إلى المدخل الرئيس بالنَّاس ، بعضهم جاء هارباً ، وآثر الابتعاد عن مرمى الرصاص ، وبعضهم الآخر ابتعد عن الغاز الذي يكاد يقطع أنفاس القريبين من المعبر ،

- قف عند ذاك الدكان...

أشار الشاب الجالس في المقعد الأمامي إلى دكان صغير ، فتح باب السيارة قبل أن تتوقف نهائياً ، قفز إلى الدكان ، وعاد حاملاً بيده بعض رؤوس البصل ، فلقها بين يديه ، واحدة تلو أخرى .

- خذ ، هذا علاج للغاز فعَّال...

أخذ زيد فلقة وراح يمررها قرب أنف رباب ، فيما راح الشاب يفعل الأمر ذاته للشاب الجريح بعد أن أعطى السائق واحدة أخرى...

تقدم السائق نحو المدخل المؤدي إلى شارع القدس ليس بعيداً عن المعبر ، توقف

حين رأى من بعيد حشداً من السيارات ، سأل أحدهم مستوضحاً ، أفاده بأنَّ دورية تقف عند المدخل ، وتفحص وثائق كل سيارة ، تدقق بركابها ، والشباب يرشقونها بالحجارة ، فيما يرد الجنود بقنابل الغاز ، والرصاص المطاطي ،

بحث السائق عن طريق للالتفاف والعودة ، استدار نحو اليمين ، حين أشار الشاب بأن يسلك طريقاً يعرفها ، فهو ابن المخيم ويعرف أزقته ،

انطلق السائق عبر زقاق فرعي يفضي إلى بلدة كفر عقب المحاذية للمخيم ، شاقاً طريقه بيسر وسلاسة ، بعيداً عن وسط المخيم وازدحام السيارات والنَّاس .

لم يستغرقه الدخول إلى رام الله وقتاً طويلاً ، التف يساراً نحو مستشفى رام الله ، دخل إلى الساحة المؤدية إلى مدخل الطوارئ ، فيما تهيأ الشاب للانطلاق نحو النقالة لأخذ الجريح وإسعافه .

تنفس زيد الصعداء حين رأى السائق يبحث عن طريق يأخذه بعيداً عن المستشفى ، مدَّ يده إلى رباب كأنما يطمئنها ، فيما حاولت رفع رأسها والنظر إلى زيد ، لكنها أحست بتعب شديد ، أعادها إلى حيث كانت ، ألقت برأسها إلى كتف زيد وهي تتمتم كلمات لم يفهمها ،

لف ذراعه حولها ، وراح يربّت على كتفها ، تمنى لو عاد به الزمن إلى تلك الليلة في حيفا ، لو كان يملك قدره ، لأوقف عقارب الساعة وأعاد رسم ما حدث على نحو مختلف ،

- آه... لو عاد بي الزمن سوف أغيّر كل شيء ، كل شيء ،
- للحياة وجهان يا زيد ، لو كنا نملك قدرنا ما كنَّا رضينا به ،

حمداً لله على السلامة ، لقد وصلنا أخيراً... قال السائق مخاطباً زيد...

8

... رباب ..حبيبتي ، لا تستعجلي الرحيل ، ما زال عندي بحر من الحكايات ، ليتك تسمعينها ، لقد عدت من ترحالي لأحكي لك ما تبقى من حكايات لم يتسن لي روايتها لك ، العمر قصير يا رباب ، لا يكفي لرواية حكاياتنا ، بل إنَّه قصير إلى الحد الذي لا نملك فيه قرار رحيلنا ، وتوقيته ، رباب ...لا تستعجلي الرحيل ، لا يزال لدينا حكاياتنا التي لم تكتمل... ها أنذا عدت لنكملها معاً.. فلا ترحلي.. ليس عندي من أكملها معه... أرجوك... لا ترحلي...

بدا وكأنه يتحدث إلى نفسه ، إذ بالكاد سمع صوته ، وبالكاد تحركت شفتاه ، تحشرج محاولاً دفع لعابه إلى حلقه ، حين أحس به ينغلق على ذاته ويتحجر ، أحس بها تبتعد عنه ، اقترب منها مداعباً أذنها ، مثلما كان يفعل في الأيام الخوالي ، كانت تحب ذلك ، تستسلم لذراعيه ، يضمها إليه ، تغفو كطفلة هدهدتها حكايات جدتها فاسترسلت في حلمها ، واستسلمت لنعاس تسلل إلى عينيها ، احتضنت أحلامها ، وغفت .

انسحب من على السرير ، وقف قليلاً قبل أن يغادر الغرفة ،

- بابا... ، أود أن أشرب الشاي معك،...

كان سالم يقف قريباً من باب المطبخ ، التفت زيد إلى ابنه وقد فوجئ بطلبه ، غير أنَّ سالم لم ينتظر جواب أبيه ، دلف إلى المطبخ ، كانت تلك المرة الأولى التي يطلب سالم من أبيه مثل هذا الطلب ، فيما توجه زيد إلى العريشة ، محاولاً إخفاء ابتسامة ارتسمت على شفتيه ، وقد غمره إحساس بالفرح ، لم يعرفه من قبل ، ها هو سالم يبادر لفتح حديث مع والده ، ألقى بجسده على الديوانية متمتماً...

- إنْ كِبر ابنك خاويه !!

ترى ماذا يريد سالم ؟!

مهما يكن ، فقد خالجه شعور بالفرح ، لم يعهده من قبل ، كأنه اكتشف أبوته الآن ، ها هو يتعرف على ابنه ، ابنه الذي أصبح رجلاً ، كان سالم لا يزال طفلاً في السنوات الأولى من عمره ، أمضى طفولته يوم أبعدوا والده بعيداً فعاش طفولته مثل سمكة تسبح وحيدة في بحر متلاطم الأمواج ، تزدحم فيه حيتان تتربص بالعابرين ، ولا توفر أحداً ، كبر سالم وكلاب الاحتلال تطارده وأقرانه أينما ذهبوا ، كانت كوابيس الاحتلال تلازمه وتقض مضجعه ، يبحث عن والده فلا يراه إلا لماماً ، خلف القضبان تارة ، أو بالسر متسللاً بعيداً عن عيون الاحتلال ، حيث ظل الكابتن روني يلاحقه وأمه رباب حتى بعد إبعاد زيد ، عاش سالم مثقلاً بالخوف والانتظار ، يسرق الاحتلال عمره ، دون أن يملك ما يرد طفولته ، ويبعد عنه شر الاحتلال .

كان النهار في آخره ، وظلال التلال تهبط إلى الأودية ، وزيد يحدق في السفوح المقابلة ، كأنما يحصي شجر الصنوبر المتناثر بين شجر الزيتون الرومي القديم ، فيما استوقفته شجرة بلوط ، نهض واقفاً ، حين رآها هناك ، تحمل الزوّادة وتذهب إلى البلوطة متخفية بلباس بدوية ، تخفي الزوادة هناك وتعود أدراجها إلى العريشة ، فيما يتسلل زيد إلى البلوطة ، يأخذ زوادته ويعود كما جاء ، كانت رباب شريكاً حقيقياً له ، تقاسمت معه مرارة العيش ولحظات الانكسار ، أما لحظات الفرح ، فقد كانت على قلتّها ، تمضي كلمح البصر ،

قطع سالم حبل أفكار والده مقتحماً خلوته ، وضع صينية القهوة ، وحدق في والده ، الذي لم يفق من شروده بعد ،،،

بابا... نحن اليوم ، في بحر متلاطم ، كل من يبحر فيه ، لا بد أن ينتهي الأمر به إلى الغرق ، بعضنا يصمد ويصارع الموج ، وبعضنا الآخر يضعف وينهار ، فلا يجد

غير الاستسلام لقدره ، يغلبه الموج فيأخذه بعيداً ، ينزلق إلى قاع المحيط ، يعتمد مصيره على صلابة قاربه وقدرته على التحمل والصمود في وجه العواصف والموج العاتي ، الموت يا والدي ضيف ثقيل ، وغير مرحب به ، يأتينا من دون ميعاد ولا ينتظر دعوة من أحد ، يقتحم حياتنا ويأخذنا إلى حيث لا ندري ، أليس هذا ما يحدث الآن ؟!

إنه الموت يا والدي ، لا شيء يشبهه على الإطلاق ، يخطف أحبتنا ويتركنا عاجزين لا نقوى على فعل شيء ، نعيش حياتنا ، نغرق في أحلامنا ولا يخطر ببالنا أننا سنرحل ذات يوم ، ومن منَّا سيرحل قبل الآخر ، تأخذنا أحلامنا بعيداً ، يفجؤنا الرحيل ، نفقد توازننا ، حين تدهم أحلامنا أعاصير لم تخطر ببالنا ، يتقاذف الموج قاربنا ، نبحث عن مستقر وعن قشة نتعلق بها ،

بابا ، أنا ابنك ، ابنك الذي التقيته شاباً ، وتسمعه لأول مرة ، نعم ، أنا ابنك سالم ، ربما أشبهك ، وان اختلفت عناصر تشكلك في بعض تفاصيلها ، فأنا أحملها بشكل أو بآخر ،

لقد تعلمت منك الكثير ، كانت أمي تقول لي ، لو كان أبوك معنا لفعل كذا وكذا ، لكن أكثر ما تعلمته منك قولك الذي كانت أمي ترددده لي :"هناك دائماً ما يستحق أن تدافع عنه" ،

كان سالم يتحدث إلى والده ، فيما كان زيد يحدق به غير مصدق ما يسمع ، ها هو ابنه يبذه بل ويتفوق عليه ، شاب مليء بالحيوية ، يعرف أين يقف ، وإلى أين يتجه ،

فجأة ، انتفض سالم وركض نحو زاوية البيت ، لكنه عاد مسرعاً إلى والده ،

- بابا ، أنا لست هنا ولم ترني منذ أيام ، اسمع ، قل لهم أنني في الجامعة وسوف أبقى هناك حتى نهاية الأسبوع ،

كاد أن يقفز إلى الوادي ، لكنه عاد إلى العريشة حيث والده في حيرة من أمره ، يحاول اكتشاف ما يجري ، فيما كان سالم يلتقط فنجان قهوته ، ويلقي به بعيداً ، منطلقاً نحو الوادي ، أما والده فكان يقف مذهولاً ، محاولاً استيعاب ما يجري... لكنَّ زيداً أفاق من ذهوله على صوت ما لبث أنَّ تعرَّف على صاحبه .

- زيد ، أين ابنك سالم ؟

حدَّق زيد بالكابتن روني وقد حمله المشهد إلى عشرين عاماً مضت ، حين اقتحم الكابتن روني تصحبه دورية مدججة بالسلاح منزله واعتقلوه ، لكنَّ صوت الكابتن روني أعاده من ذهوله...

- قلت لك يا زيد... سوف نلتقي ، ابنك يسير على خطى والده...

- الحمد لله... فمن شابه أباه ما ظلم .

- يعني أنت موافق على ما يقوم به ،

- سالم أصبح رجلاً ، وهو يملك قراره ولا يحتاج إلى من يدلّه على الطريق ، أنتم من يدفعه إلى ذلك ،

- أين ابنك سالم يا زيد ؟

- قلت لهم ولم يصدقوني...

- وماذا قلت لهم ؟

- قلت لهم ، ما في فايده ، قل لي ماذا تغيّر ، كنتم هنا تصولون وتجولون ، وها أنتم كما كنتم ، لم تتغيروا ، خرجتم من الباب وعدتم من الشباك ، أنتم تسخرون منَّا ، أي سلام هذا يا

كابتن روني ، اعتقدت أني لن أراك ثانية ،

- قلت لك سنلتقي يا زيد ، وها أنا أوفي بوعدي .

- وأنا وعدتك وسوف أفي بوعدي .

- أين ابنك يا زيد .

- ابني في كل مكان يا كابتن روني ، انظر حولك وسوف تجده ، أنت مجنون ، سوف يأتي يوم تلعنوا كل من كتب حرفاً في مشروعكم .

- لماذا لا ترحلوا إلى الأردن أو حتى سوريا والعراق ، أو أي بلد آخر ؟

- نحن في وطننا لن نرحل عنه

- هذه بلادنا ، وعدنا بها الرب ، كنَّا هنا قبل ألفي عام وها نحن نعود إليها كما وعدنا بها الله...

- الله لم يعدكم ، وعدكم بها الانجليز ، وإن كان الله وعدكم كما تقول فأنت تنفي عنه صفة العدل ، إذ كيف يخرب الله بيتاً ليعمر آخر ، الله عادل ولا يمكن أن يفعلها ، إلا إذا كان لكم إله آخر غير إلهنا وإله العالم بأسره .

انتشر الجنود متخذين مواقع قتالية ، حال سماعهم طلقات رشاش ، فيما تأهب الكابتن روني لمغادرة المكان ، حين انهالت الحجارة عليهم وتعالت أصوات الشباب بالشتائم وسقوط الاحتلال مطالبينهم بمغادرة المكان ،

- سوف نلتقي يا زيد ، أعدك بأننا سوف نلتقي .

- وأنا أعدك بأنني سأكون بانتظارك .

- قل لابنك أن يسلّم نفسه ، وإلا سيضيع كما ضعت أنت ، قل

له أن يتعلم مما جرى لك .

- لقد تعلم فعلاً ، وأنا سعيد بما تعلم ،

كانت الحجارة تنهال عليهم من كل صوب ما دفع الكابتن روني إلى المغادرة وإعطاء الأمر للدورية بالانسحاب ، تقاطر الجيران للاطمئنان على زيد ، وسؤاله عما جرى ، فيما كانت عيناه تجول الوادي والتلال المقابلة ، لعل ولده سالم يرسل إشارة ، أو ربما سمع إطلاق نار أو أو... كان القلق بادٍ عليه ، ولم يستطع مجاراة جيرانه في أحاديثهم فغادروا واحداً تلو الآخر ، وربما جماعات ، فيما كانت بعض النسوة تغادر مودعة أم زيد ، داعين لرباب بالسلامة والعافية ، فيما تقدمت من العريشة حيث كان زيد جالساً منهكاً ، حاول أن يخفي قلقه ، ويلم تشتته ، لكن أم زيد لم يخف عليها أمر زيد فبادرته:-

- ما بك يا بني ؟!...

- اعتقدت أنَّ الحياة بدأت تبتسم لي ،

- أمرك غريب يا بني ، كأنك لم تعرف الاحتلال ، ولم تعرف طبعه ،

- ظننت أنَّ الاحتلال انتهى ، أو على الأقل سوف يبدأ بالاندحار.

- الاحتلال باقٍ ، خرجوا من الباب وعادوا من الشباك ،

- يبدو أن سذاجتي فاقت كل حد .

- إنها كذلك يا زيد ، فهل أنت نادم على عودتك ؟!

- أبداً ، لكن العيش في هذا الوطن ، يحتاج لكثير من الشجاعة ونكران الذات .

- ضيعت عمري في البحث عن وطني ، وحين سنحت لي فرصة لقائه والعيش فيه لم يكن ذلك غير سراب ، يبدو يا أم زيد أننا لم ندفع ما يكفي لسداد مهر عروستنا حتى نستحقها.

- ربما دفع الآخرون أكثر مما دفعنا ! فاستحقوها أكثر منَّا .

- دفعنا الكثير ، وهل لدينا أكثر مما دفعنا ؟!

- نعم لدينا ، انظر كيف حولنا مشروعنا الوطني إلى مشروع شخصي ، كل منَّا منشغل في تدبير أموره الشخصية "واللي راح ، راحت عليه" ، هذا ما أرادوه لنا ، وقد نجحوا في ذلك .

- سوف أذهب لأتفقد رباب ،

- أهرب ، كعادتك ،

التفت إلى والدته ، ولم يجد ما يرد عليها ، فمضى في طريقه كأنما يهرب منها ومن مواجهة صراحتها...

تكورت أم زيد على الأريكة وأطلقت العنان لدموعها ، لعلها تغسل الحزن الذي انحبس طويلاً ، وهي التي أمضت عمرها تنتظر من يطمئنها عن زيد ، أو منتظرة أمام مكتب إدارة الاحتلال المدنية ، مستجدية تصريحاً بعد آخر لزيارته في السجن ، بعد رحيل زوجها وتحملها مسؤولية العائلة ، حملت همّ الجميع ، لم تتذمر ولم تشكُ من تعب ، أدمنت الجلوس تحت الدالية في الصيف ، فإن حل الشتاء بحثت عن ركن قصي في المطبخ ، تقف عند النافذة مطلقة العنان لنظرها ، يجول أنحاء التلال المحيطة ، تحدق في الأفق ، لعلها تلحظ خيطاً يوصلها بزيد ، تستحضره من مخبئه ، وحالها يقول :-

- آه يا زيد ، أما آن لأمك أن تستريح ؟!

9

خيَّم الصمت على الوادي ، فيما كانت أوراق الزيتون تلمع في انعكاس ضوء القمر عليها وقد بللها الندى ، بينما كانت أم زيد تريح رأسها المتعب على باطن كفها ، تقاوم نعاساً داهمها وأثقل جفونها فاستسلمت لحلم لازمها سنوات طويلة ، الحية الرقطاء ذاتها ، تقفز من شجرة إلى أخرى ، تطارد زيداً وتحاول الإمساك به ، لكنها كانت تصحو في كل مرة قبل أن تتمكن منه ، تلعن الشيطان وتعوذ بالله منه ، لكنها أفاقت الليلة على الأفعى تحلق فوق منزلهم ، تهبط نحو العريشة ثم لا تلبث أن تطير دون أن تلمس أحداً... أفاقت أم زيد مذعورة... جالت ببصرها العريشة وانتقلت بناظريها صوب الباب ، وقد أدركت أنَّ ثمة ما يدعو إلى القلق ، فقد ذهب زيد منذ ساعات لتفقد رباب ، ولم يعد ،

نهضت أم زيد وتقدمت نحو الباب المغلق بحذر ، أصاخت السمع ، وأطرقت لعلها تسمع ما ينبئها بخبر ما ، ظلت تتمنى طول الوقت ألاَّ تسمعه... الصمت مرعب في بعض الأحيان ، لكنه أبلغ من الكلام في كثير من الأحيان ، مدَّت يدها إلى الباب ، وانسلت إلى الداخل عيناها على غرفة نوم رباب ، وأذناها في أقصى حالات التأهب لسماع ما يجري خلف الأبواب المغلقة ، ازداد قلقها حين وقع نظرها على باب غرفة نوم رباب فقد كان مغلقاً ، تقدمت على رؤوس أصابعها ، حين سمعت همساً وكلاماً لم تدرك كنهه في البداية ، لكنها أحست براحة ، إذ إن ذلك يعني أنَّ رباب بخير ، لكنَّ اطمئنانها تراجع حين سمعت أصواتاً مختلفة ، تقدمت نحو باب الغرفة بحذر شديد ، وهي مشدودة إلى الأصوات القادمة من عمق الغرفة محاولة تبين أصحابها واستيضاح أمر ما يجري ، وما يدور هناك ،

بدأت الأصوات تتضح ، وقد أحست بأذنيها تغادرانها ، وهي تجهد في الاصغاء

للحديث الدائر في الغرفة .

- لماذا يكرهوننا ، أخذوا منا كل شيء ، ماذا يريدون بعد ؟!

اندهشت أم زيد حين سمعت سالم يسأل ، وقد علا صوته قليلاً ، وأكمل...

- نحن لم نفعل لهم شيئاً ، بل نحن الذين دفعنا ثمن الجرائم التي ارتكبها الآخرون بحقهم ، وإن كان هناك من يجب أن ينتقموا منه ، فهم يعرفونه جيداً ، لسنا نحن من فعل بهم ذلك ، سرقوا وطننا وشردونا ، ويلاحقونا اليوم على ما تبقى... إنهم قتلة ولصوص .

- إهدأ يا بني .

- كيف أهدأ وهم يتصيدونا واحداً بعد الآخر ، ماذا يريدون منَّا ، فليرحلوا كما رحل غيرهم .

- سوف يرحلون يا بني ، سوف يرحلون .

دفعت الباب بحذر ، ومن شق صغير رأته ، كان سالم يجلس على طرف السرير ، يلف يده حول رأس أمه ، فيما تداعب يده الأخرى يدها ، بينما جلس زيد قبالة رباب ينظر إليهما مذهولاً ، شارد الذهن... حيث حمله المشهد إلى عشرين عاماً مضت ، يوم التقى رباب ، وعاشا معاً سنوات لم تزل تفاصيلها في ذاكرته ، محفورة لا تنمحي ، رغم تقلباتها وانعطافاتها ، ورغم ما فعله الاحتلال بهذا الحب وأصحابه .

- أهلاً ، أهلاً يا أم زيد .

تسحَّب سالم من جانب أمه حين وقع نظره على جدته ، ركض نحوها ، تعانقا بحرارة .

- حسابك بعدين...

همست أم زيد في أذن سالم وهي تشدّه إليها ، وتدفع رأسه إلى صدرها... تقرص أذنه وتشدّها .

- أنت ولد عاق ، ألا يكفي ما فعله والدك بي ؟! أنت تعيد سيرته وتتبع خطاه ، فهل عليَّ أن أعيش ما تبقى من عمري أتبعك من سجن إلى آخر ؟!

- يا أم زيد ، يا حبيبتي ، إنهم يخدعوننا ثانية ، هم لا يريدوننا أحياء على هذه الأرض ، اخترعوا إلهاً وأنطقوه بوعد أباح لهم تدمير بلدنا وتشريد شعبنا وإقامة وطن لهم على أنقاض وطننا ،

أشار زيد لهما بمغادرة الغرفة ، وقد رأى رباب تفتح عينيها مصغية لحديثهما ، وحين رأتهما يغادران الغرفة ، أشارت بكفها ، كأنما تدعو سالم للبقاء معها ، نظر إليها ، فيما غادر زيد وأمه الغرفة ، اقترب سالم من أمه لكنها أشارت بيدها إلى الباب ، فهم أنها تطلب إليه أن يغلقه ، توجه إلى الباب شارد الذهن ، محاولاً تفسير ما يجري ، مستحضراً عدداً من الأسئلة التي تنتظره ، بدا سالم مرتبكاً ، رغم محاولاته استحضار أفكاره واستعادة توازنه ،

- تعال يا بني... تعال هنا...

تقدم سالم نحو أمه ، فيما كانت تنظر إليه محاولة إخفاء ابتسامة ارتسمت على فمها لم تستطع مقاومتها .

- زيد ، كأنك زيد أمامي بشحمه ولحمه...

- من شابه أباه ما ظلم..

رد سالم وهو يبتسم .

- لكن أباك ، كان يهرب حين لا يجد جواباً لأسئلة حاصرته ، رافضاً الاعتراف بعجزه .

- أمي ، أنا لست عاجزاً ، ولن أهرب من أي سؤال .

- عرفت ذلك حين سمعتك تحاور جدتك ،

- سألت والدك ذات يوم عن سبب عودته إلى أريحا متسللاً ، مخاطراً بحياته حين عاد من منفاه بعد اتفاق أوسلو متلهفاً لرؤية رام الله ، معتقداً أنَّ الاحتلال انتهى ، تكسّر حلمه حين اكتشف أنَّ الكابتن روني لا يزال يلاحقه ، وأنَّ الاحتلال لا يزال متربصاً به أينما ذهب ، أدرك حينها أنَّ العيش في هذا الوطن ، يتطلب شجاعة وتفانٍ كبيرين ، لكنه تعلق به وأحبه مثلما لم يفعل من قبل ، سألته يومها ، ماذا يعني لك هذا الوطن لو لم يكن هناك من تحبه؟!

كانت رباب تتحدث إلى سالم ، كأنها تودّعه ، أمسكت بيده وقد أحست بألم في مفاصلها ، لكنه اقترب منها ، قبَّل جبينها ورفع يدها إلى فمه ، لثمها ، ثم بسط ظاهرها وألقى برأسه على باطنها ،

- لا تجعل الحزن يغلبك يا بني ، تعلّم كيف ومتى تسامح ، ولكن قبل أن تسامح عدوك يجب أن تؤذيه إلى الحد الذي يجبره على الاعتراف بجريمته والاعتذار عما اقترفت يداه.

كان لديها ما تقوله ، إذ بدت راغبة في الحديث مع سالم ، لكنَّ صوت طلقات حالت دون ذلك ، فيما قفز سالم نحو الباب ، لكنَّ زيداً سبقه معترضاً طريقه ، فيما عاد سالم إلى أمه ، قبَّل يدها شدته نحو صدرها وهي تقاوم دموعها ، كأنما حرصت ألا يراها تبكي ،

- هيا يا بني ، لا أريدهم أن يمسكوا بك ،

- اطمأني يا أم زيد ، ما عدت أدري من منَّا يطارد الآخر ، نحن أم هم ؟!

- تعال يا سالم ، تعال بسرعة .

قبَّل أمه ، وانطلق خارجاً ، فيما كانت جدته تصيح :

- غيّر طريقك ، اسلك طريقاً غير الطريق التي سلكتها من قبل ، إذ يبدو أنهم عرفوا مخبأك .

- لا تخافي يا جدتي ، لا تخافي ، هذه أرضنا وأنا أعرف منهم بدروبها ،

ثمة أمور في حياتنا نجهل تفسيرها ، بعضنا يعيشها ويدخل في تفاصيلها ، وكلما أوغل فيها ، ازدادت غموضاً ، وبعضنا الآخر يأخذها من قصيرها ، يضعها جانباً ، وربما خلف ظهره ، ويهرب بعيداً عنها ، مؤثراً عدم الوقوع في أسرها .

جلس زيد تحت العريشة ، التي اعتاد اتخاذها مجلساً ، مطلقاً العنان لشروده ، كأنما يبحث عن نهاية لمشهد تتحرك شخوصه على هواها ، دون أن يملك القدرة على تحريك أي منها ، نصٌّ مفتوح على كل الاحتمالات ، ولا يملك التنبؤ بأي منها .

ابتسم بمرارة ، حين لمعت برأسه صورة صديق قديم ، صدم سيارته بشجرة زيتون رومية قديمة على جانب الطريق ، بين رام الله ونابلس ، وكاد يدفع حياته ثمناً لشروده ، تذكر كلمات صديقه القديم هذا حين ذهب لزيارته في المستشفى ، وسأله عن سر ارتطامه بشجرة الزيتون الرومية الكبيرة .

- ألم ترها يا صديقي ، إنها كبيرة ؟!

- بلا رأيتها ، أقسم أني رأيتها ، لكني نسيت أنني كنت السائق ،

كنت أظن طول الوقت أنني مرافق للسائق وأجلس إلى جواره .

تذكر صديقه القديم هذا ، ابتسم في سرّه ، حتى كاد يضحك ، لكنه عاد إلى ذاته ، حين أدرك أنَّ حاله اليوم يشبه حال صديقه القديم ، فراح يقلّب نظره بين الوادي حيث ولده سالم ، وبين غرفة النوم حيث رباب تصارع الموت ، لا تقوى على شيء ، بين هذا وبين عجزه عن فعل شيء لأي منهما ، انكفأ على نفسه ، وآثر الهرب كعادته .

أفاق زيد من شروده على صوت سيارة توقفت أمام مدخل البيت ، رفع رأسه ، التقت عيناه بعيني كابتن روني ، لم يحرك ساكناً ، لكنه بصق ، ليس على الكابتن روني فحسب ، وإنما على كل ما يمثله ، نهض وقد أثاره المشهد ، تقدم نحو مدخل البيت ، لكن الكابتن روني سبقه وانصرف ، فأكمل طريقه ، لكن أم زيد كانت تقف أمام الباب تدعوه إلى عدم الدخول .

- تعال معي ، لا داعي لإزعاجها فهي نائمة ،
- ليتنا نجمع أشياءها الصغيرة يا أمي... قال زيد مخاطباً والدته .
- لماذا نجمعها ؟!
- على الناس أن تدفن مع موتاهم أشياءهم التي كانوا يحبونها ، هكذا قالت لي رباب ذات يوم .

انطلق زيد نحو الدرج المؤدي إلى الوادي ، فيما كانت ام زيد تقف أمام الكابتن روني ، حائلة دون لحاقه بولدها ، الذي غيبه الوادي ، وتماهى مع أشجار الزيتون ، وأشجار البلوط والصنوبر والعليق الذي يغطي الحجارة متغلغلاً بين مفاصل السلاسل يشدها ويزيدها تماسكاً .

انتهت/كانون الثاني 2012

نحن يا بنى لا نملك أن نغير قدرنا وفى
عنفوان شبابنا وانتشائنا بالعزّة والقـــوة
الزائفة ، نسخر من أقدارنا ونعتقد أننـــا
قادرون على رسـم خطوط مستقبلنـــــا،
غير أنَّ الخوف يتملكنـا حين نســتشــعر
الخطـــــر، فينتابنـــا إحســـــاس بالعجـــز،
يحاصرنا فلا نملك غير الإستسلام لهـــذا
القدر والاعتراف بالهزيمة،عندها نتمسك
بدعائنا إلى الله واعترافنا بضعفنا وعجزنا.
اللهم لا نسألك ردَّ القضاء،لكنا نسألك اللطف فيه.